هل ينحدر العالم

نعوم تشومسكي
إدوار سعيد
يورغن هابرماس
جان بودريار
إدغار مورار
ريجيس دوبريه
فيليب كوركون
سلافوي زيزيك
سمير أمين

ترجمة
محمد ميلاد

نعوم تشومسكي إدوارد سعـيد
إدغـار موران يورغن هابرماس
ريجيس دوبريه جـان بـوديـار
فيليب كوركوف سلافوي زيزيك
سمير أمين

هل ينحدر العالم إلى الهاوية

ترجمة: محمد ميلاد

دار الحوار

Bitterness_s

المقدمة

تتألف مادة هذا الكتابة من باقة من المقالات المختارة من مصادر متنوعة، وهي تطرح قضايا راهنة وحساسة تتعلق بمستقبل العالم الذي نعيش فيه من زوايا نظر مختلفة: سياسية وثقافية وسوسيولوجية واقتصادية.

فهذا نعوم تشومسكي يبيّن أولاً كيف أن الاستخفاف بالقانون الدولي متجذر في الثقافة والممارسات الأمريكية عبر التاريخ، كما أنه يروي قصة وقوع العراق في معسكر "الدول المارقة" بحسب واشنطن.

ويتطرق في مقاله الثاني إلى العوامل التي أدت إلى دعم الحرب على العراق، كادعاء ارتباط نظام صدام حسين بتنظيم القاعدة، كاشفاً عن دور الولايات المتحدة في كل ما سببته في العالم من جرائم.

أما إدوار سعيد فهو يتصدّى للردّ على أطروحة هنتنغتون المروّجة للعولمة الجديدة التي ترى أن الصراع سيكون ثقافياً في

الأساس، وأن تصادم الحضارات سيسيطر على السياسة العالمية، وسيستفحل الصراع بين هويتين كبيرتين من بين ثماني حضارات، وهما الإسلام والغرب.

وهذا المفهوم، مفهوم "تصادم الحضارات" ساذج حسب، رأيه ومنغلق على نفسه لأنه لا يؤمن بتفاعل الهويات والثقافات عبر التاريخ، لأنه يعتبر أن الحرب وحدها هي الحقيقة.

ويعبر سعيد في مقاله الثاني عن الحاجة الملحة لبديل عربي يمتح من مدونة كاملة في تراثنا من الخطابات العلمانية والدينية عن المجتمع والتاريخ، وليس من تصريحات الأمريكان عن العرب وعن الإسلام...

ويثير إدغار موران عالم الاجتماع الفرنسي مشكلة سيطرة اللاتفاهم والانتقام، بالرغم من تعدد أشكال التواصل، متحدثاً عن تعميم الحلقة المفرغة الإسرائيلية - الفلسطينية في العالم بأسره، والحلقة المفرغة "الغرب - الإسلام" وعن انتصار المانوية داخل تصادم البربريات مما سُمّي بـ "تصادم الحضارات".

ويرى موران أن بربرية القرن الحادي والعشرين تحمل في داخلها إمكانية تدمير الإنسانية نفسها بنفسها. وقد يكون ما هو غير محتمل ممكناً - انطلاقاً من نظرية ديبوي - ومثال ذلك سيطرة الإمبراطورية الهتلرية على أوروبا.

وينقل لنا يورغن هابرماس انطباعاته وأفكاره حول مشهد التاسع من نيسان في بغداد: "لم توجد حالة دفاع عن النفس لها علاقة بهجوم فعلي أو محتمل، ولا إجازة بقرار من مجلس

الأمن طبقاً للفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة. بل إن العملية كلها تحولت إلى تهريج عندما أخذ رئيس الولايات المتحدة يكرر القول بأنه سيتحرك عند الاقتضاء دون تفويض من مجلس الأمن".

كما "لا يجب بأي حال من الأحوال خلط ضرورة الصحة validite على الصعيد الكوني التي يربطها الغرب ب "قيمة السياسة الجوهرية" بالطموح الإمبريالي إلى جعل ثقافة معينة نموذجاً بالنسبة إلى كل المجتمعات".

أما ريجيس دوبريه فهو يشدد على حاجة الغرب إلى التخلص من التمركز حول الذات، ويحذر من إقصاء الشأن الديني لأن هذا الأخير سيعود في شكل طوائف (أو أنه قد عاد) في شكل طوائف، وهناك، من ثمّة ضرورة عاجلة لفهمه.

ويحلل جان بودريار عنف العولمة طارحاً سؤالاً مركزياً هو: من يقدر على إفشال النظام العالمي؟ الأمر لا يتعلق حسب رأيه ب"تصادم حضارات" بل بمواجهة انثربولوجية تقريباً بين ثقافة كونية لا متمايزة وكل ما يحتفظ - في أي مجال كان - بقدر من الغيرية غير القابلة للتبسيط.

ثم يوضح لنا عالم الاجتماع الفرنسي فيليب كوركوف المجالات والمواقف المختلفة داخل نخبة من الكتاب مثل نعوم تشومسكي وانطونيو نيغري وجون هوللواي وميغيل بينا صياغ وبيير بورديو ودانييل بنسعيد في إطار ما سُمّي بالفكر المناصر للعولمة البديلة.

ويتضمن الكتاب كذلك حواراً مع الفيلسوف سلافوي زيزيك حول قضايا راهنة مثل التطورات المتعلقة بالليبرالية الجديدة انطلاقاً من كتابه (ماذا تريد أوروبا؟)، كما يعلّق زيزيك في هذا الحوار على كتاب هاردت ونيغري (الامبراطورية). وسوف نقرأ مقتطفاً من كتابه (الشبح لا يزال يطوف).

وإذا كان زيزيك يعتبر كتاب هاردت ونيغري كتاباً سابقاً للماركسية ومعاوناً للرأسمالية فإن سمير أمين يثبت بالاستناد إلى مجموعة من البراهين أن هاردت ونيغري قد كسبتهما الليبرالية الراهنة وكسبهما النموذج الأمريكي.

وهو يدعو في مقاله الثاني إلى بعث مؤسسات أممية أخرى تختلف عن المؤسسات التي تقتصر على خدمة رأس المال المالي مثل المنظمة العالمية للتجارة وصندوق النقد الدولي، إلخ. من أجل سيادة الدول والأمم والشعوب. وهناك حسب رأيه ثلاث حركات لمناصرة العولمة البديلة لا بد لها أن توحد جهودها لبناء عالم بديل ينشده الجميع.

وهكذا، وبكل ما تقدم، تقوم أهمية المشهدية الثقافية والسياسية التي يقدمها هذا الكتاب.

المترجم/

الفصل الأول

نعوم تشومسكي

واشنطن فوق القانون الدولي

أمريكا: الدولة المارقة

في شهر حزيران الماضي*، أقصت وزارة الخارجية في واشنطن عبارة "الدولة المارقة" Etat voyou من لغتها الديبلوماسية لتستبدلها بمقولة أكثر غموضاً هي "الدولة المثيرة للانشغال" State of concern من أجل اكتساب أكبر قدر من المرونة في علاقتها بالدول التي نعتتها بهذه الصفة. لقد كانت عبارة " Rogue State" المخصصة لسبع دول محددة وهي (كوريا الشمالية، كوبا، العراق، إيران، ليبيا، السودان، سوريا) والتي يمكن ترجمتها بالدول المارقة أو الدولة الخارجة على القانون أو الدولة المنبوذة أيضاً، كانت تعني دولاً تساند - حسب واشنطن - الإرهاب، وهي خاضعة تبعاً لذلك لعقوبات من طرف واحد.

---

* كاتب هذا المقال المنشور في لوموند ديبلوماتيك، أغسطس 2000 هو نعوم تشومسكي، أستاذ في جامعة بوسطن، من بين مؤلفاته ساعتان للنظر بوضوح: حديث مع دنيس روبير وفيرونيكا زراكوفيتش (منشورات Arenes، باريس، أيلول 2000)، النزعة الإنسانية العسكرية الجديدة: دروس كوسوفو، لوزان 2000؛ مسؤوليات المثقفين (Agone، مرسيليا، 1998).

لعب مفهوم "الدولة المارقة"[1] أو الدولة الخارجة على القانون إلى حدود هذه الفترة الأخيرة دوراً رئيسياً في التحليل والتخطيط السياسيين الأمريكيين. وتقدم الأزمة العراقية التي مرت عليها الآن عشر سنوات (تم غزو الكويت من قِبل العراق في 1 أغسطس 1990) مثالاً معروفاً لدى الجميع بخصوص هذا الأمر[2]. فكان أن أعلنت واشنطن ولندن أن العراق "دولة مارقة" تشكّل خطراً على جيرانها وعلى الدول الأخرى وأنها "دولة خارجة على القانون" يسيّرها هتلر جديد ينبغي إحباطه من قِبل حرّاس النظام العالمي: الولايات المتحدة ورافدتها البريطانية بالأسلحة.

أهم خاصية لهذا السجال حول "الدول المارقة" هي أنه لم يقم أبداً، بما أن المناقشات ظلت محصورة في حدود تمنع هذه الضرورة الواضحة من أن تعبّر عن نفسها، إذ يجب أن تتصرف الولايات المتحدة وإنجلترا طبقاً للقانون والمعاهدات الدُّولية التي صدّقت عليها.

إن الإطار القانوني المناسب في هذا الصدد هو ميثاق الأمم المتحدة كأساس للقانون الدُّولي، لكنه بالنسبة إلى الولايات المتحدة: الدستور الأمريكي. إن ما ينصّ عليه الميثاق هو الآتي "**لمجلس الأمن إذا لاحظ وجود أي تهديد للسلام أو أي خرق له أو وقوع عمل عدواني أن يقرر ما يجب اتخاذه من التدابير التي**

---

[1] إن عبارة "الدولة المارقة" "قد فقدت مبرر وجودها" حسب ما صرح به المتحدث باسم وزارة الخارجية ريشار بوشيه، لأن الكثير من هذه الدول قد عدّلت من سلوكها. لكن تعديل المصطلح لا يؤثّر بالعقوبات ضدّ الدول المعنية. انظر لوموند، 21 حزيران 2000.

[2] انظر آلان غريش، "احتضار صامت في العراق" لوموند ديبلوماتيك، تموز 1999.

لا تتطلب استخدام القوات المسلحة لتنفيذ قراراته. إذا رأى مجلس الأمن أن هذه التدابير لا تفي بالغرض، جاز له ما يرى ضرورة لاتخاذه من الأعمال لحفظ السلم والأمن الدولي أو إعادته إلى نصابه".

وتتعرض المادة الواحدة والخمسون للاستثناء الوحيد المقبول: "ليس في هذا الميثاق ما يضعف أو ينتقص الحق الطبيعي للدول، فرادى أو جماعات، في الدفاع عن نفسها إذا اعتدت قوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة، وذلك إلى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولي".

توجد إذن سبل شرعية يتم اللجوء إليها قصد التصدي لمختلف الأخطار التي تهدد السلام في العالم، وما من دولة لها سلطة التصرف حسب هواها متخذة إجراءات أحادية. ولا تشذ الولايات المتحدة وإنجلترا عن القاعدة، حتى لو كانت نظيفة الأيدي، وهو أمر مستبعد. فلا "الدول المارقة" مثل عراق صدام حسين ولا الولايات المتحدة تقبل هذه الضغوط. لذلك لم تتردد مادلين أولبرايت كاتبة الدولة الحالية في مواجهةٍ أولى مع العراق، وكانت سفيرة لدى منظمة الأمم المتحدة آنذاك، في أن تصرّح أمام مجلس الأمن قائلة: "سنتصرف بشكل جماعي كلما أمكن ذلك، وبشكل أحادي عندما نرى الأمر ضرورياً" ذلك "أننا نعتبر منطقة الشرق الأوسط ذات أهمية حيوية بالنسبة إلى المصالح القومية للولايات المتحدة".

وقد عبّرت من جديد عن هذا الموقف في شباط 1998 عندما كان الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة كوفي أنان في مهمة ديبلوماسية في بغداد: **"نتمنى له حظاً سعيداً، وسنرى عند عودته ما إذا كان ما حققه يتماشى مع مصالحنا القومية"**. عندما أعلن كوفي أنان أن اتفاقاً قد أُبرم مع صدم حسين، صرّح الرئيس وليام كلنتن من جانبه أنه إذا لم يحترم العراق هذا الاتفاق - باعتبار واشنطن الحَكَم الوحيد في المسألة - **"سيفهم الجميع أن الولايات المتحدة وكل حلفائنا - وهو أمر مُؤَمَل - سيكون لهم الحق بشكل أحادي في الرد في أي وقت وأي مكان وبأي طريقة يقررون ذلك"**. وقد صدّق مجلس الأمن في الأمم المتحدة بالإجماع على الاتفاق الذي وقّعه أنان، ورفض شروط لندن وواشنطن للسماح لهما باستخدام القوة إذا لم يتم احترامه. وفي هذه الفرضية الأخيرة قد يتعرض العراق مع ذلك **"إلى أخطر النتائج"** حسب ما أشار - دون توضيح - قرارُ المجلس الذي قرر أن يظل مجتمعا بشكل دائم. ويتعلق الأمر حسب العبارات الواردة في ميثاق الأمم المتحدة بمجلس الأمن ولا شيء غيره.[3]

كانت لواشنطن قراءة مختلفة تماماً لهذا النص الذي لا يشوبه أي غموض. وحسب السفير الأمريكي لدى الأمم المتحدة بيل ريشاردسون **"لا يمنع الاتفاق المبرم من استخدام القوة من جانب واحد"**. وتحتفظ الولايات المتحدة بالحق الشرعي في

---

[3] انظر أريك رولو، "السيناريو المعاكس في الخليج"، لوموند ديبلوماتيك، آذار 1998.

الاعتداء على بغداد كلما أرادت ذلك. وقد أوضح ريشاردسون قائلاً: "**يمكن أن يتخذ القصف ثلاثة أشكال: الضربات المدروسة بدقة، الضربات المنتظمة، الضربات المكثّفة. ولن تكون الضربات الدقيقة كافية. لذلك سنتوخى الضربات المنتظمة**". كما أعلن كلنتون بدوره أن قرار مجلس الأمن "**يمنحه حق التصرف**" بوسائل عسكرية كما بيّن مستشاره الإعلامي - في حالة عدم التزام العراق بتعهداته. وقد اعتبر بعض المنتخبين في الكنغرس أن هذا الموقف الرسمي قد حافظ على قدر كبير من الاحترام للقانون الدّولي والعالمي. لذلك انتقد الممثّل الجمهوري ترنت لوت زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ حكومة كلنتون لأنها " أوكلتْ" سياستها الخارجية "**إلى الآخرين**" أي إلى مجلس الأمن. وأضاف زميله الممثل الديمقراطي جون كيري المنتمي سابقاً مع ذلك إلى "**الحمائم**" أن غزو العراق من قبل الولايات المتحدة "مشروع" إذا "**أصر صدام حسين على خرق قرارات منظمة الأمم المتحدة**".

إن الاستخفاف بأوليّة القانون متجذر بعمق في الثقافة الذهنية والممارسات الأمريكية. يكفي أن نتذكر من بين أمثلة عديدة ردّ فعل واشنطن بخصوص قرار محكمة العدل الدولية في لاهاي سنة 1986.

نذكر أنه تمت إدانة الولايات المتحدة لـ "**استخدامها اللامشروع للقوة**" ضد نيكارغوا الصندينية، ودعوتها إلى وضع

حدّ لنشاطاتها السرية لصالح أعداء الجبهة الصندينية (الكنترا) وإلى تقديم تعويضات للحكومة الشرعية في مانغوا[4].

أثار هذا القرار لأعلى هيئة قضائية دولية عاصفةً من الاحتجاجات في الولايات المتحدة. واتُهمت المحكمة بأنها "فقدت حظوتها" ولم يُعتبر قرارها جديراً بالإعلان عنه. ولم تتم إقامة أي اعتبار للأمر، بل على العكس من ذلك: خصّص الكنغرس ذو الأغلبية الديمقراطية اعتمادات جديدة لإرهابيي الكنترا. وفي تصريح مؤرخ في نيسان 1986 عبّر كاتب الدولة جورج شولتز بوضوح عن الاعتقاد الأمريكي في هذا المجال عندما قال: "كلمةُ تَفاوض هي صورة بيانية تخفّف من كلمة استسلام إذا لم يُبسط ظلّ القوة على الطاولة الخضراء (طاولة القمار)" موبخاً في سياق حديثه المنادين باستعمال "وسائل طوباوية وشرعية مثل وساطة أطراف أخرى، منظمة الأمم المتحدة أو محكمة لاهاي متجاهلين عنصر القوة في المعادلة".

إن الاستخفاف المعلن بالمادة الواحدة والخمسين من ميثاق الأمم المتحدة لأمر معبّر جداً. لدينا مثال كاشف في الفترة التالية لاتفاقات 1954 التي وضعت حدّاً للحرب الأولى في الهند الصينية، والتي قادتها فرنسا. فقد تم اعتبار هذه الاتفاقات "كارثة" من قِبل واشنطن التي سعت إلى عرقلتها في الحال: قرّر

---

[4] حول موقف الولايات المتحدة من المنتمين للحركة الصندينة عندما كانوا يتقلدون السلطة، انظر اناسيو رامونيه، "الحرب الخفية الطويلة ضد نيكارغوا"، لوموند ديبلوماتيك، شباط 1987.

المجلس القومي سراً أن الولايات المتحدة "في صورة حصول تمرد أو عمل انقلابي شيوعيين في نطاق محلي لا يشكّلان هجوماً مسلّحاً". ستعمل على استخدام القوة حتى ضدّ الصين إذا تبين أن هذه الأخيرة "مصدر عمل انقلابي" ونادت نفس الوثيقة بإعادة عسكرة اليابان وتحويل تايلندا إلى "بؤرة للعمليات السرية ولحرب نفسية في الجنوب الشرقي لآسيا"[5]، وفي الهند الصينية بالذات أي في الفيتنام. ثم سعت الحكومة الأمريكية إلى تقديم تعريفها الخاص لمفهوم العدوان مُدمجة في الحساب "النضال السياسي أو العمل الانقلابي" وهو أمر لا يخصّها ضمنياً، وهو ما سماه أدلي ستيفنون الممثل الديمقراطي "عدوانا داخلياً" في الوقت الذي برّر فيه صعود الرئيس جون كيندي الذي أدّى إلى هجوم واسع النطاق في جنوب شبه الجزيرة، وبالتالي إلى حرب فيتنام الطويلة.[6]

لتبرير غزو الجنود الأمريكيين بانما في كانون الأول 1989 أمام مجلس الأمن، استند السفير توماس بيكرينغ إلى المادة الواحدة والخمسين لمنظمة الأمم المتحدة: يتعلق الأمر بالنسبة إليه بالحيلولة دون استعمال أراضي هذه البلاد "كقاعدة للمتاجرة

[5] National Security Council 5 429/2, Washington

[6] سيُلاحظ أن روبير ماك نافرا، كاتب الدولة الأمريكي للدفاع من سنة 1961 إلى سنة 1968 قد اعتبر منذ فترة قريبة أن الولايات المتحدة نفسها بسبب نزوعها المتزايد إلى التصرف بصورة أحادية و"دون احترام انشغالات الآخرين" أصبحت "دولة مارقة" انظر Flora lewis, (Some learn power's Hard lessons Better than Others), The International Herald Tribune, 26 guin 2000.

بالمخدرات موجهة نحو الولايات المتحدة". وما من أحد وجد مطعنا في الفكرة "النيّرة" لدحض هذا التأويل.

في حزيران 1993 أحرز كلنتون نجاحاً كبيراً في الكونغرس وفي الصحافة عندما أمر يشنّ هجوم بالصواريخ على العراق، تسبّب في عديد الضحايا من المدنيين. وقد أدهش المحلّلين لجوء أولبرايت إلى المادة الواحدة والخمسين الشهيرة: يُعدّ القصف حسب قولها "دفاعاً شرعياً ضدّ هجوم مسلّح". هناك ادعاء في واقع الأمر بحصول محاولة اغتيال للرئيس الأسبق جورج بوش قبل شهرين! وقد أعلم مسؤولون في الإدارة دون ذكر أسمائهم الصَّحَفيين أن "هذا الحكم بإدانة العراق كان مرتكزاً على أدلة وتحاليل فعلية وليس على معلومات صلبة" مما جعل الصحافة ترحب بالإجماع باستخدام المادة الواحدة والخمسين الشهيرة. وقد دافع وزير الخارجية دوغلاس هورد هو الآخر في مجلس العموم في إنجلترا عن هذا "التطبيق المبرّر والمدروس للحق في الدفاع الشرعي".

مثل هذه الحصيلة تُرجّح الحكم لصالح كل الذين يشغلهم عبر العالم وجود "دول مارقة" تصمّم على استخدام القوة باسم "المصلحة القومية" التي لا تحددها سوى الأساليب الداخلية للحكم. والأمر الذي يسبّب انشغالاً أكبر بالإضافة إلى ذلك هو وجود "دول مارقة" تنتصب حكماً وجلاداً على مستوى الكوكب.

فما هي "الدول المارقة"؟ إن الفكرة التي ترتكز عليها هذه الصياغة مفادها أن الولايات المتحدة وإن انتهت الحرب الباردة (– 1989

1947) تحافظ على مسؤولية حماية العالم. لكن ضدّ من؟ لقد مضى زمن "المؤامرة التكتّلية والشرسة" لجون ف. كينيدي و"امبراطورية الشرّ" العزيزة على رونالد ريغن. يجب العثور على أعداء أخر.[7]

على الجبهة الداخلية، ما نشّط الخوف من الإجرام - المخدرات بالخصوص - هي "مجموعة من العوامل ذات صلة بعيدة أو غير ذات أهمية بالجريمة بحصر المعنى". وهذا ما استنتجته اللجنة القومية حول القضاء الجنائي التي تشير إلى سلوك وسائل الاتصال وإلى "الأسلوب الذي تتعهّد به الدولة والقطاع الصناعي الخاص الخوف عند المواطنين" عبر "توظيف التوترات العنصرية الكامنة لغايات سياسية".

وكذلك هو أسلوب التشديد على الأفكار - المسبقة العنصرية داخل الشرطة والقضاء، والتي تفتّت الطوائف السوداء، وتخلق "هوة عنصرية" معرضة البلاد إلى "خطر كارثة جماعية". لقد تحدّث المختصون في الإجرام في هذا الشأن عن "غولاغ أمريكي"** أي عن "نظام ميز عنصري جديد" بالتزامن مع ظهور لأول مرة في تاريخ الولايات المتحدة لفئة من السكان المساجين يبلغ عددهم المليونين (!) وتتكون هذه الفئة من المعتقلين من الأفارقة - الأمريكان. ويفوق معدّل اعتقال السود سبع مرات

---

[7] Lire Philip Bowring, "Rogue States Are Overrated", International Herald Tribune, 6 juin 2000.

** Goulag: مؤسسة المعتقلات الخاصة بالأشغال الشاقة. أصبحت رمزاً للقمع في الاتحاد السوفيتي سابقاً(م).

معدّل اعتقال البيض دون مقارنته بمعدّل الإيقافات التي يخضع لها السود مع ذلك بِنِسَب لا علاقة لها بالأرقام الحقيقية بتناول المخدرات أو المتاجرة بها.[8]

أما في الخارج فالأخطار التي تأتي في المقدمة هي " الإرهاب الدُّولي" و"مهربو المخدرات الإسبان". والخطر الأكبر على الإطلاق هو "الدول المارقة". ترسم دراسة سرية صادرة سنة 1995 - تم نشرها حديثاً بفضل القانون الخاص بحرية الإعلام - الخطوط العريضة للمقاربة الاستراتيجية في فجر الألفية الجديدة. حسب وكالة اسوشايتد برس تُبين هذه الدراسة التي وجّهتها القيادة الاستراتيجية Strategic Command المسؤولة عن الترسانة النووية الاستراتيجية والمعنونة Essential of post – cold war Deterrence (مبادئ أساسية في الردع بعد الحرب الباردة) "كيف عدّلت الولايات المتحدة استراتيجيتها في الردع معوّضةً الاتحاد السوفييتي بالدول التي تعدّ "مارقة" أو "خارجة على القانون" وهي العراق، إيران، ليبيا، سوريا، السودان، كوبا، كوريا الشمالية". وتوصي الدراسة بأن تستغل الولايات المتحدة إمكانياتها النووية لترسم لنفسها صورة "لا عقلانية" و"حاقدة" إن تعرضت مصالحها الحيوية للخطر: "من المضرّ بنا أن نبدو كأناس عقلاء ومنطقيين وقادرين على ضبط أنفسنا بكل برودة". والأسوأ من ذلك كأناس نحترم صبيانيات تافهة مثل القانون والمواثيق الدولية

---

[8] Lire The Real War on Crime: the Report of the National criminal Justic Commission (sous la direction de Stenen Donziger), Harper Collins, New York, 1996.

ف " إمكانية ظهور بعض عناصر" الحكومة الفيدرالية "كمجانين أو كأشخاص من المستحيل مراقبتهم أمر يمكن أن يُسهم في خلق أو تعميق المخاوف والتصورات في أذهان أعدائنا".

تُحْيي هذه العلاقة "نظرية المجنون" لريشار نيكسون: يجب على أعداء الولايات المتحدة أن يفهموا أنهم أمام مختبلين، سلوكهم غير متوقع، ويمتلكون قدرة كبيرة على التدمير. وهكذا يقودهم الخوف إلى الخضوع للإرادة الأمريكية. لقد ابتكرت هذا المفهوم في إسرائيل في الخمسينات الحكومة العمالية التي كانت قيادتها "توصي بالأعمال الجنونية" مثلما عبّر عن ذلك الوزير الأول السابق موشي شاريت في يومياته. بل إن هذا المفهوم كان موجّهاً جزئياً ضد الولايات المتحدة التي لم يكن يوثق بها بصورة كافية في تلك الحقبة. إن هذه النظرية التي تكفّلت بها القوة العظمى الوحيدة حالياً التي تعتبر نفسها فوق القوانين ولا تتعرض للكثير من الضغوط من قبل نخبها الخاصة، ستطرح مشكلاً جدياً بالنسبة إلى بقية العالم.

منذ الفترات الأولى لحكومة ريغن في 1980 اعتبرت ليبيا "الدولة المارقة" بامتياز. فهذا البلد بحكم هشاشته وافتقاره لوسائل الدفاع يمثّل بالفعل كرة للتمرن على الملاكمة. سيكون مثلاً قصف الطيران الأمريكي لطرابلس سنة 1986 أول قصف في التاريخ يُبرمج لبثّه مباشرة في التليفزيون في مكان السَّبق، كي يتمكن الموظّفون الكتبة لدى "الخبير الكبير في الاتصال" على أثر ذلك تعبئة الرأس لصالح الهجومات الإرهابية التي تشنها واشنطن على نيكارغوا. ما هي

الذريعة؟ " أرسل الإرهابي الأكبر" القذافي "400 مليون دولار وترسانة كاملة إلى مانغو لينقل الحرب إلى قلب الولايات المتحدة" التي تمارس حقها في الدفاع الشرعي ضد العدوان المسلح الذي تقوده هذه "الدولة المارقة" أي: نيكارغوا الصندينية.

ما إن سقط جدار برلين سنة 1989 ليزول الخطر السوفييتي، حتى عرضت حكومة جورج بوش على الكونغرس طلبها السنوي لحصول البنتاغون على ميزانية ضخمة: "في هذه المرحلة التاريخية الجديدة، لن يكون استخدام قواتنا متعلقاً على الأرجح بالاتحاد السوفييتي، بل بالعالم الثالث الذي سيتبيّن أنه بحاجة إلى قدرات وأساليب جديدة في التصرّف". وأضافت حكومة بوش أنه سيكون على الولايات المتحدة إعداد قوات هامة للقصف، وبالخصوص تلك المخصصة للشرق الأوسط حيث "الأخطار المهددة لمصالحنا" التي تتطلب تدخلات عسكرية مباشرة "لا يمكن أن تُنسب إلى الكريملين" - خلافاً لسلسلة أكاذيب لا تنتهي نشرتها الدعاية الأمريكية منذ أربعين عاماً، وقد ماتت اليوم من تلقاء نفسها.

في تلك الفترة لم يكن من الممكن أن تُنسب الأخطار المهددة لمصالح أمريكا إلى العراق. كان صدام حسين الذي يشنّ الحرب ضد إيران الإمام الخميني صديقاً مستقطباً بالنسبة إلى واشنطن وشريكاً تجارياً. لكن منزلته تغيّرت كلياً بعد بضعة شهور عندما أساء في تموز 1990 تأويل الموافقة الأمريكية على التعديل بالقوة لحدوده مع الكويت، ليعتبرها صكاً أبيض لاجتياح هذا البلد

بأكمله[9]. أي، ضمن تصور حكومة بوش، ليتكرر من جديد صنيع الولايات المتحدة في بانما في كانون الأول 1989.

غير أنَ المقارنات السياسية ليست صحيحة دائماً. فعندما انسحبت واشنطن جزئياً من بانما بعد أن نصبت حكومة شكلية خادمة لها، تفجرّت موجة من الغضب في نصف الكرة الأرضية وكذلك في بانما. بل إن هذه الموجة تفجرت عبر العالم لتُجبر واشنطن على استخدام حقّ الفيتو ضد قرارين أصدرهما مجلس الأمن، وعلى التعبير عن رفضها لقرار أصدرته الجمعية العامة يدين "الخرق السافر للقانون الدولي ولاستقلال الدول وسيادتها وسلامة أراضيها" ويطالب بانسحاب "القوات العسكرية الأمريكية" من بانما.

وذلك مما غذّى تفكير المحلّلين السياسيين مثل رونالد ستيل الذي يسأل نفسه عن "اللغز" الذي أصبحت تواجهه الولايات المتحدة: إنها تكتشف بوصفها الأمة الأكثر قوة في العالم أن حريتها في استخدام القوة خاضعة إلى المزيد من الضغوطات أكثر من أي بلد آخر" ممّا يفسر انتصار صدام حسين (الوقتي) في الكويت في آب 1990 مقارنةً بعجز واشنطن عن فرض إرادتها في بانما.

قبْل العراق كانت تترأس لائحة "الدول المارقة" كل من إيران وليبيا. لكنْ هناك دول لم تكن موجودة أبداً. أندونيسيا مثال

---

[9] انظر بيير سلينجر وأريك لوران، حرب الخليج، الملف السري، أوليفييه أوربان، باريس، 1990.

واضح في هذا الشأن، فبعد أن كات بلداً عدواً أصبحت بلداً صديقاً عندما استولى سوهارتو على الحكم سنة 1965 بعد حمّامٍ من الدم حَظي بتأييد واسع في الغرب[10]. وسرعان ما أصبح سوهارتو "من نوع الأشخاص الأليفين المفضَّلين" (our kind of guy) حسب الصياغة المستخدمة من قِبل حكومة كلنتون، مرتكباً في الوقت نفسه أعمالاً إجرامية وفظاعات لا تنتهي ضدّ شعبه. وقد قتلت القوات النظامية في فترة الثمانينات وحدها عشرة آلاف أندونيسي حسب شهادة الديكتاتور الشخصية الذي أشار أيضاً إلى أن "الجثث مهملة كأنّ الأمر نوع من المعالجة بالصدمة"[11].

مع ذلك، أمر - بداية من شهر كانون الأول 1975 - مجلس الأمن في منظمة الأمم المتحدة أندونيسيا بسحب قواتها التي اجتاحت تيمور الشرقية المستعمرة البرتغالية السابقة "بلا تأخير"، وطَلَبَ من "جميع الدول احترام سلامة أراضي تيمور الشرقية وحق سكانها المشروع في تقرير المصير". وردّت الولايات المتحدة على هذا القرار الذي اتخذته الأمم المتحدة بالزيادة سرّياً في دفعات الأسلحة للمعتدين.

وعبّر دانييل باتريك مونيهان في مذكراته، وقد كان سفيراً في تلك الفترة لدى منظمة الأمم المتحدة، عن فخره بأن جعل الأمم المتحدة إزاء أندونيسيا "عديمة النجاعة بصورة كاملة في أي

---

[10] انظر "تيمور الشرقية، الفظاعة وفقد الذاكرة"، لوموند ديبلوماتيك، تشرين الأول 1999.

[11] ذكره شارل غلاس، Prospect، لندن، 1998.

مجال من المجالات التي اتخذت فيها إجراءات". وذلك حسب تعليمات وزارة الخارجية "التي طمحت إلى التطور الذي عرفته القضية وسعت إلى أن تتم الأمور على هذا النحو". وستقبل واشنطن بهدوء، رغم ما يمثله الأمر من اختراق للشرعية الدولية، بنهب البترول التيموري (بمساهمة شركة أمريكية) مستخفة بأي تأويل معقول للاتفاقات الدولية.

هناك قدر كبير من التشابه بين الأوضاع في تيمور الشرقية وفي الكويت، لكنْ هناك أيضاً بعض الاختلافات. يتمثل الاختلاف البدهي أكبر من غيره في أن الفظاعات المرتكبة من قبل النظام الأندونيسي في جزيرة تيمور تتجاوز بكثير الفظاعات التي تُنسب إلى العراق في شأن جارته[12]. لكن ذلك لم يجعل من أندونيسيا "دولة مارقة" في لائحة واشنطن.

ليست جرائم صدام حسين ضد شعبه، ونخص بالذكر استخدامه للأسلحة الكيماوية ضد المدنيين - وهو أمر غير خاف على مصالح الاستعلامات الأمريكية - هي التي جعلت الدكتاتور يتحوّل إلى "وحش بغداد". قبل غزو الكويت أبدتْ له الولايات المتحدة مسندة ثابتة إلى درجة أنها غفرت له ضربة جوية عراقية للسفينة الحربية ستارك USS Stark (أدت إلى قتل سبعة وثلاثين بحاراً أمريكياً) وهو امتياز لم يحظ به أحد سوى إسرائيل (عندما ضربت "خطأ" سفينة ليبرتي في حزيران 1967 مخلّفة

---

[12] انظر رولان - بيير بارنغو، "آثار جسيمة في تيمور الشرقية"، لوموند ديبلوماتيك، أيار 2000.

أربعة وثلاثين قتيلاً). وقد نسّقت الولايات المتحدة مع صدام حسين الحملة الديبلوماسية والعسكرية والاقتصادية التي أفضت سنة 1989 إلى استسلام إيران "أمام بغداد وواشنطن" مثلما كتب المؤرخ ديليب هيرو. بل إنها طلبت من صدام حسين تأدية الخدمات المعهودة التي تؤديها عادة دولة خادمة: أي التكفل مثلاً بتدريب المئات من المرتزقة الليبيين المجنّدين من قِبل الأمريكان للإطاحة بالعقيد القذافي مثلما كشف عن ذلك هوارد تيشير، المستشار السابق لريغن[13].

وإذا وقع صدام حسين في معسكر "الدول المارقة" فلأنه عَلِق في الفخ وأظهر تمرده، مثل هذا المجرم الذي هو دونه حجماً: جنرال البانما مانويل نوريغا الذي اقترف جرائمه الكبيرة عندما كان في خدمة واشنطن وهي التي تكافئه. وقد أُدرجت كوبا في هذا الصنف باعتبارها متوّرطة في "الإرهاب الدولي"، ولم تُدرج الولايات المتحدة التي كرّرت الاعتداءات الإرهابية منذ ما يقارب الأربعين عاماً على جزيرة الكرايب ومحاولات اغتيال فيديل كاسترو. كما اعتُبر السودان أيضاً "دولة مارقة" وليست الولايات المتحدة التي قصفت في أغسطس 1998 ما زعمت أنه مصنع للأسلحة الكيماوية، وقد ثبت فيما بعد حسب ما صرحت به السلطات في الخرطوم أن الأمر يتعلق بمصنع للأدوية.[14]

---

[13] The New york Times, 26 mai 1993

[14] انظر آلان غريش، "حروب مقنّعة لوموند ديبلوماتيك، أيلول 1993.

هكذا نرى أن مفهوم "الدولة المارقة" الذي وقع التخلّي عنه الآن رسمياً كان يتميز بالمرونة. كانت المقاييس في نهاية الأمر في غاية الوضوح: لم تكن "الدولة المارقة" دولة مجرمة فقط بل دولة لا تخضع لأوامر الأقوياء وبوجه خاص لأوامر الولايات المتحدة التي توجد طبعاً في مأمن من هذا التصنيف الشائن.

أفضل عالم بحسب واشنطن

لم تنته حرب العراق. وقد تحتّم في الولايات المتحدة على الرئيس بوش أن يعترف بأن اتهاماته لبغداد بشأن صفقات اليورانيوم مع النيجر كانت زائفة. أما في بريطانيا، فإن انتحار دافيد كيللي الذي كان قد ندّد ب "المبالغات" التي عبّر عنها طوني بلير في تقريره حول العراق، يجعل مستقبل الوزير الأول هشاً. وانكشفت شيئاً فشيئاً لعامة الناس "أكاذيب الدولة" التي نشرها قادة "التحالف". وأخيراً تتعدد العمليات على الأراضي العراقية ضد قوات الاحتلال الأمريكية التي تتكبد خسائر يومية. ومن الواضح أن مجلس الحكومة الذي نصبّته الإدارة بقيادة بول بريمر عاجز عن إخراج البلاد من الفوضى.

خلال شهر سبتمبر 2002 وقعت أحداث كبرى مترابطة فيما بينها ترابطاً وثيقاً. فمن جهة وضعت الولايات المتحدة الأمريكية، وهي أكبر دولة في تاريخ الإنسانية، استراتيجية جديدة للأمن

القومي[15] معلنة أنها ستحافظ على هيمنتها على العالم بصورة مستمرة وأنها سترد على أي شكل من أشكال التحدي وهذا بواسطة القوة، ميدان لا ينازلها فيه أي منافس منذ نهاية الحرب الباردة. أما من جهة ثانية - وفي الوقت المحدّد الذي أعلن فيه عن هذه السياسة - فقد أخذت طبول الحرب تدق من أجل تهيئة العالم لغزو العراق.

هذه "الاستراتيجية الإمبريالية" الجديدة مثلما وصفتها على الفور أهم المجلات المؤسساتية، تجعل من الولايات المتحدة "دولة تحريفية تسعى إلى استغلال إيجابياتها المؤقتة إلى الحدّ الأقصى في إطار نظام عالمي تمسك هي بمقاليده".

في هذا "العالم الأحادي القطب (...) لا يمكن لأية دولة أو أي تحالف الاعتراض على دور أمريكا بوصفها زعيمة العالم وحاميته وشرطيّه[16]" هكذا حذّر جون إكنبيري John Ikenberry - الذي نستشهد به هنا - من أخطار هذه السياسة بالنسبة للولايات المتحدة نفسها. وقد عارض هذا المشروع الإمبريالي بقوة. ولم يكن هو المعارض الوحيد.

لم ينتظر العالم سوى بضعة أشهر حتى يبلغ الخوف من الولايات المتحدة وعدم الثقة إزاء قادتها السياسيين أوجهما.

---

[15] جورج دبليو بوش، استراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة، عهد جديد، واشنطن، 20 سبتمبر 2002. إقرأ نص الوثيقة الكامل على الموقع:
Medias. Lemonade. Fr / medias / pdf _ obj / docbushstrategfra 020920. Pdf.

[16] جون إكنبيري، "فورين أفريرز" نيويورك، سبتمبر، أكتوبر 2002.

وقد تجاهلت وسائل الإعلام الأمريكية تحقيقاً أُجري من قِبل Gallup في ديسمبر 2002 كشف عن حقيقة أن مشروع شن حرب على العراق "من طرف واحد من قبل أمريكا وحلفائها" لم يلق أي مساندة[17].

وقد أعلم بوش الأمم المتحدة أنها لا تستطيع أن تكون "ذات وجاهة" إلاّ عندما توافق على مخططات واشنطن. أو أن عليها أن تقبل بأنها مجرد مكان لطرح السجالات. وفي دافوس أعلم كولن باول "المعتدل" المشاركين في المنتدى الاقتصادي العالمي المعارضين كذلك لمشاريع البيت الأبيض الحربية، أن الولايات المتحدة "تملك الحق المطلق في القيام بعمل عسكري". موضحاً أنه "كلما كنا مقتنعين بشيء ما، سنبيّن الطريق"[18]. ولا يهم إن لم يتبع الطريق أحد.

قرر جورج دبليو بوش وانطوني بلير عشية الحرب أن يعلنا في قمة جزر أسور Acores عن استخفافهما بالقانون والمؤسسات الدولية. وبما أن تحديد الأجل النهائي لم يكن موجّهاً إلى العراق بل إلى الأمم المتحدة، فقد كانا يقولان لها: استسلمي أو أننا سنشن الغزو دونما انشغال بموافقتك التي لن تعنينا. وسنفعل ذلك سواء غادر صدام حسين البلاد بصحبة أسرته أو لم يغادر[19].

---

[17] سبر آراء في 27 بلداً. انظر:
A Rising Anti – American Tide "International Herald Tribune" Paris, 5 decembre 2002.

[18] **"The Wall Street Journal" New York 27 janvier 2003**

[19] **Michael Gordon, "the New York Times", 18 mars 2003.**

أكد الرئيس بوش بعنف أن الولايات المتحدة كانت لها "السلطة المطلقة لاستخدام القوة لضمان أمنها القومي". غير أن البيت الأبيض كان مهيّأ لتقديم "واجهة عربية" في العراق ما إن يتم تنصيب القوة الأمريكية بشكل راسخ في قلب أهم منطقة منتجة للطاقة في العالم. ولن يَطرح نوع من الديموقراطية الشكلية أيّ مشكلة، لكن شرط أن يتمخض عن نظام خاضع مثل تلك الأنظمة التي تطالب بها واشنطن في منتجعها.

كما أجازت "الاستراتيجية الإمبريالية" لشهر سبتمبر 2002 للولايات المتحدة شن "حرب استباقية" وهي استباقية وليست استردادية preemptive[20]، بما أن الأمر يتعلق بإضفاء صفة الشرعية على الدمار الذي سيحدثه خطر لم يتجسّد بعد، يمكن أن يكون متخيلاً أو حتى مختلقاً. فالحرب الاستباقية إذن ليست سوى تلك "الجريمة العظمى" التي وُضعت موضع اتهام في نورمبرغ. وهذا ما قد أدركه على الفور أولئك الذين يشغلهم نوعاً ما في الولايات المتحدة مصير بلادهم. فحين اجتاحت قوات التحالف العراق اعتقد المؤرخ آرثر شليسنجر A.Schlesinher أن الاستراتيجية الامبريالية بالنسبة للرئيس بوش بهذا الأسلوب كانت "قريبة بشكل رهيب من سياسة الامبراطورية اليابانية في زمن بيرل هاربو Pearl Harbor. وقد أعلن في تلك الفترة رئيس أمريكي آخر

[20] ترتبط الصحة القانونية لحرب "استردادية" بوجود دلائل مادية تبرهن على قرب وقوع الخطر وضرورة التحرك. أما الحرب الاستباقية فهي لا تستند بالمقابل إلى الخشية من عدوان وشيك، بل إلى الخوف من عدوان أبعد زمنياً أي إلى خطر استراتيجي. انظر ريشارد فالك.

"إن ذلك اليوم قد طُبع إلى الأبد بوصمة عار"[21]. كما أضاف شليسنجر كيف يندهش المرء من حقيقة أن "موجة التعاطف العالمية التي فجرتها أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 قد حلت محلها موجة عالمية للكراهية إزاء غطرسة الأمريكان وفرض نظامهم العسكري؟".

لم تطرح هذه "الموجة العالمية للكراهية" في واشنطن مشكلاً خاصاً. لقد كانوا محل خشية على كل حال وغير محبوبين، وإنه لأمر طبيعي أن يستعيد دونالد رامسفيلد كلام قاطع الطرق Al capone: "يحصل المرء على أشياء أكثر عن طريق الكلمة المهذبة والبندقية مقارنة بالكلمة المهذبة وحدها ولا شيء سواها"، وكان القادة الأمريكان يدركون كذلك بأن سلوكاتهم تزيد من خطر انتشار أسلحة الدمار الشامل وخطر الإرهاب. لكن بلوغ بعض الأهداف كان يعنيهم أكثر مما يعنيهم هذا النوع من الأخطار، بما أن رهان الولايات المتحدة كان يتمثل - في آن واحد - في فرض هيمنتها على العالم وفي تطبيقها برنامجها المتعلق بتفكيك الانتصارات التقدمية التي حققتها النضالات الشعبية خلال القرن العشرين، بل كان لابد لها من مأسسة هذه الثورة المضادة كي تصبح مستمرة.

لا يمكن لقوة مهيمنة أن تكتفي بإعلان سياستها الرسمية، بل عليها أن تفرضها بوصفها المعيار الجديد للعلاقات الدولية. وسيأتي فيما بعد محللون بارزون ليبيّنوا أن للقاعدة regle

[21] "لوس أنجليس تايمز"، 23 مارس 2003.

شيئاً من المرونة بحيث يصبح المعيار صالحاً بوصفه نموذجاً ويُطبق على الفور. غير أن الذين يملكون الأسلحة هم الذين يمكنهم وحدهم ضبط "المعايير" وبذلك يُعدَّل القانون الدولي حسب أهوائهم.

في المنهج الأمريكي الجديد، لابد أن يخضع الهدف الذي تنشده الولايات المتحدة إلى عدّة مقاييس. ينبغي ألاّ تكون له وسيلة دفاع مهمة بالقدر الذي يسمح بتبرير الاهتمام به، وألاّ يظهر فقط بوصفه "خطراً حيوياً" بل كذلك بوصفه "خطراً مطلقاً". وقد كانت هذه الصورة متوفرة في العراق بطريقة مثالية. كما كان العراق يستجيب للشرطين الأوّلين بوضوح. أما فيما يتعلق بالشروط اللاحقة، فيكفي التذكير بعظات كل من بوش وبلير وعرّابيهما: فالديكتاتور "يجمع الأسلحة الأكثر خطورة في العالم قصد الإخضاع والتخويف والاعتداء". وقد "سبق وأن استعمل" هذه الأسلحة "ضد قرى بأكملها متسبباً في آلاف الموتى والجرحى والمعاقين من بين مواطنيه أنفسهم. (...) وإذا لم يكن هذا هو الشر، فلا معنى لهذه الكلمة".

وقد لقي قرار الاتهام الذي وجّهه الرئيس بوش آذاناً صاغية؛ إذ أن المساهمين في الشر لا يجدر بهم البقاء دون عقاب. لكن ضمن هؤلاء الأشخاص بالذات ندرج صاحب هذا الكلام النبيل وبعض معاونيه الآن، وكل الذين انضموا إليهم عندما كانوا جميعاً يساندون تجسيد الشر المطلق بعد زمن طويل من اقتراف معظم جرائمه الفظيعة. فحينما كانوا يثرثرون حول الفظاعات التي

اقترفتها وحشية صدام حسين، كان القادة الغربيون يكتمون خبراً حاسماً: وهو أن كل ذلك قد تم بدعمهم لأنهم كانوا في الأصل غير مبالين بهذا النوع من الأشياء. وقد أصبح الدعم إدانة، ما إن اقترف صديق الأمس جريمته الأولى وهي عدم إطاعتهم (أو ربما إساءة فهم أوامرهم) عندما اجتاح الكويت. وكان العقاب فظيعاً... وقد سُلط على المواطنين. أما الطاغية فقد تخلص من الأمر دون خسائر بل إنه وجد المزيد من القوة من خلال نظام عقوبات سلّطها حماته القدامى.

جددت واشنطن دعمها لصدام حسين بُعيد حرب الخليج الأولى، عندما سحق الديكتاتور الانتفاضات التي ربما كانت ستؤدي إلى قلبه. وقد بيّن توماس فريدمان في تلك الفترة في "النيويورك تايمز" أن "أفضل عالم" في نظر البيت الأبيض، ربما تمثّله "طغمة عراقية تخلصت قبضتها من صدام حسين"[22]. وبما أن هذا الهدف يتعذر بلوغه حسب ما يبدو، فإنه يجب الاقتصار على الخيار الثاني الممكن. لقد أخفق المتمردون إذن بمجرد أن "أجمعت بشكل عجيب واشنطن وحلفاؤها على اعتبار أن القائد العراقي قدّم للغرب وللمنطقة - مهما كانت خطاياه - أفضل ضمان للاستقرار أكثر من الذين تعرّضوا للقمع من جانبه"[23]. وقد اختفى كل ذلك بحسب تحليلات توماس فريدمان حول المدافن التي تحوي ركام ضحايا ذلك الرعب الذين يبررون الحرب "من وجهة نظر أخلاقية".

---

[22] توماس فريدمان، "النيويورك تايمز" 7 جوان 1991.

[23] توماس فريدمان، مرجع ذكر أعلاه، وألان كويل، "النيويورك تايمز" 11 أفريل 1991.

كان السكان الأمريكيون يجرّرون أقدامهم، وقد وقع الزّج بهم في حالة من الغضب العدواني. وفي مطلع شهر سبتمبر 2002، بدأ قصف إعلامي رهيب حول الخطر الوشيك الذي يمثّله صدام حسين بالنسبة للولايات المتحدة، وكذلك حول صلاته بتنظيم القاعدة، وهي صلات توحي بتوّرط النظام العراقي في اعتداءات 11 سبتمبر 2001. لكن معظم الدلائل "المضطربة لم تستطع سوى أن تثير الضحك بصورة عامة"[24] مثلما قالت مديرة "نشرة علماء الذرة" Bulletin of Atomic Scientists "لكن بقدر ما كانت (تلك الدلائل) تثير السخرية، بقدر ما كانت وسائل الإعلام تجتهد في إبراز استعدادنا للانخداع بها بوصفه تعبيراً عن الحس القومي"[25].

وقد خلّف هذا الهجوم آثاره، فانتهى معظم الأمريكيين إلى اعتبار حقيقة أن صدام حسين كان يمثل "خطراً وشيكاً" بالنسبة للولايات المتحدة. كما اعتقد نصفهم فيما بعد أن العراق ساهم في اعتداءات 11 سبتمبر. فنتج عن ذلك دعم الحرب. وانكشفت حملة البروباغندا بوصفها غير كافية لتوفر لإدارة بوش أغلبية صغيرة في الانتخابات نصف - النيابية. وقد وضع الناخبون انشغالاتهم جانباً ليبحثوا عن ملجأ في كنف السلطة ضد العدّو الشيطاني. وفي مطلع شهر ماي 2003 وعلى جسر حاملة الطائرات (أبراهام لنكولن) دعا الرئيس بوش إلى

---

24 توماس فريدمان، "النيويورك تايمز"، 4 جوان 2003.

25 لندا، وتستاين، "النشرية علماء الذرة"، شيكاغو، جويلية 2003.

استعراض مشهدي مخصص لتنفيذ هذه الحرب في ستة أسابيع. كما زعم أنه قد حقّق مؤخراً "انتصاراً في حربه على الإرهاب عن طريق القضاء على حليف لتنظيم القاعدة"[26]. ولم يقم أي دليل يؤكد الصلة بين صدام حسين وعدوّه الواضح أسامة بن لادن. وفيما يتعلق بالنتيجة الوحيدة التي لا جدل فيها لهذا "الانتصار على الإرهاب". ألا وهي نتيجة غزو العراق واحتلاله. يقرّ مسؤول أمريكي بأن الأمر أدّى خصوصاً - حسب ما يبدو - إلى (تراجع مهم في "الحرب على الإرهاب") من خلال ازدياد عدد العناصر المرشحة للانضمام إلى صفوف القاعدة[27].

إن الاستعراض المشهدي على جسر حاملة الطائرات (أبراهام لنكولن) بالنسبة لـ "وول ستريت جورنال"، يعلن عن انطلاق الحملة الانتخابية مجدّداً للعام 2004". ويرغب البيت الأبيض في أن تكون (هذه الحملة) "متمحورة قدر المستطاع حول مسائل الأمن القومي"[28]. وقد سبق - قبل الانتخابات التشريعية للعام 2002 - أن طلب كارل روف المستشار الانتخابي لبوش من المناضلين الجمهوريين التركيز على مسائل الأمن، قصد إلهاء الناخبين عن السياسة الداخلية اللاشعبية للبيت الأبيض. ولعشرين سنة خلت كان الرئيس رونالد ريغن لا يتصرف بطريقة

---

[26] إليزابيت بوميلي، "النيويورك تايمز"، 2 ماي 2003.
[27] جاسون بورك، "الصنداي أوبسرفو"، لندن 18 ماي 2003.
[28] جان كامينغر وغريغ هايت "الوول ستريت جورنل"، 2 ماي 2003؛ فرنسيس كلينز، "النيويورك تايمز"، 10 ماي 2003.

مختلفة؛ وقد ساعده غزو غرينادا في العام 1983 على إعادة انتخابه في السنة الموالية...

وحتى لو حققت هذه الحملة الدعائية المكثّفة بعض النجاحات، فإنها لم تتوصل إلى تطوير الرأي العام حول مسائل أساسية. وما زال الأمريكيون يفضّلون أن تدير الأمم المتحدة الأزمات الدولية بدلاً من واشنطن، كما يعتبر ثلثا الأمريكيين أن على الأمم المتحدة - وليس على الولايات المتحدة - أن تتكلف بإعادة إعمار العراق[29].

وبما أن جيش الاحتلال لم يكشف عن أسلحة الدمار الشامل الشهيرة، فقد تحوّل موقف الإدارة من "اليقين المطلق" من امتلاك العراق لهذه الأسلحة إلى فكرة مفادها أن الاتهامات المعلن عنها كان "مبرّرها اكتشاف تجهيزات قابلة ضمنياً لاستخدامها في صنع أسلحة[30]". لذلك اقترح مسؤولون ذوو رتب عالية "تعديلاً" لمفهوم الحرب الاستباقية يجيز للولايات المتحدة مهاجمة "بلد يملك أسلحة فتاكة بكمية كبيرة" ويطرح هذا التحويل "على الإدارة الأمريكية أن تتصرف ضد كل نظام مُعادٍ يريد أو يمكنه إنتاج (هذه الأسلحة)[31] ". وهكذا تصبح أهم نتيجة لبطلان الاتهامات التي استُند إليها لتبرير الغزو هي ضعف المقاييس التي تجيز اللجوء إلى القوة.

---

[29] البرنامج الخاص بمواقف السياسة الدولية، جامعة ماريلاند، 18 - 22 أفريل 2003.
[30] دان ميلبنك، "الواشنطن بوست"، 1 جوان 2003.
[31] غي دينمور وجيمس هاردينغ، "فيناشيول تايمز"، 3-4 ماي 2003.

غير أن أكبر نجاح حققته حملة البروباغندا الأمريكية كانت الاتفاق (في وجوقة واحدة) على مديح "رؤية الرئيس بوش عندما صرّح بأنه يريد نقل الديموقراطية إلى الشرق الأوسط. فيما يبرهن بالضبط - على العكس من ذلك - على استخفافه العجيب بمثل هذا المفهوم. إذ بأي وجه آخر يوصف التمييز الذي أجراه رامسفيلد بين "أوروبا العجوز" و"أوروبا الجديدة" - الأولى محقّرة، أما الثانية فهي محمودة لشجاعتها. وللتمييز بينها، الفرق بيّن: فـ "أوروبا العجوز" تضم كل الدول التي اعتمدت نفس الموقف لمعظم الشعب. أما "أوروبا الجديدة" فهي أوروبا التي تتلقى أوامرها من كراوفورد (تيكساس) دونما انشغال بالرأي العام فيها، وهو رأي مناهض للحرب حتى أكثر مما هو عليه الحال في البلدان الأخرى.

لذلك ألحّ ريشارد هولبروك كاتب الدولة المساعد في إدارة كلنتون - من خلال وجوده على الجانب الديمقراطي من الطيف السياسي الأمريكي - على "حقيقة مهمة حقاً" وهي أن عدد السكان في البلدان الأعضاء الثمانية الذين يشكلون "أوروبا الجديدة يتجاوز عدد السكان في "أوروبا العجوز"، مما يبرهن حسب رأيه على أن فرنسا وألمانيا كانتا "في عزلة". ولهذا السبب، كي يزعم المرء عكس ذلك، كان لابد من التنازل لصالح آراء يساريةٍ تريد أن يلعب دائماً رأي الشعب دوره داخل الديمقراطية. وكان توماس فريدمان كاتب افتتاحيات "النيويورك تايمز" يطالب بحرمان فرنسا من مقعدها بوصفها عضواً قارا في مجلس الأمن في الأمم المتحدة. فقد تصرّفت

مثل طفل في "مدرسة للحضانة" و"لم تكن تستطيع اللعب مثل الآخرين"[32]. وإذا ما أطلق المرء أحكامه انطلاقاً من عمليات سبر الآراء، فإن شعوب "أوروبا الجديدة" هي التي لم تكن قد خرجت من دار الحضانة الأولى.

ثم إن المرء ليتعلّم أكثر، من حالة تركيا. فقد قاومت حكومتها ضغوطات الولايات المتحدة القوية كي تبرهن على "استعداداتها (أي استعدادات الولايات المتحدة) الديمقراطية" عن طريق امتثالها لأوامر واشنطن ودونما انشغال برأي 95 في المائة من سكانها. هذا العناد أغضب الملاحظين السياسيين الأمريكان غضباً دفع بالبعض منهم إلى التذكير بالجرائم التي اقترفتها أنقرة ضد الأكراد في العام 1990 وهو موضوع كان محرّماً في السابق، نظراً لدور الولايات المتحدة كشريك في هذا القمع. وقد ظلّ هذا الدور مع ذلك من الأدوار التي حرصت على تناسيها.

لقد أعطى بول وولفوفيتز السكرتير المساعد للدفاع مفتاح المنهج الأمريكي الجديد. فاتهم بالفعل القوات التركية "بأنها لم تلعب الدور الفاعل الذي كان من حقنا انتظاره منها" عندما اختارت عدم إكراه الحكومة على دوس إرادتها من خلال الرأي العام. فعلى تركيا إذن أن تبذل جهداً وأن تعترف (وتقول): "لقد أخطأنا (..) لكن لنحاول أن نرى كيف نستطيع أن نكون نافعين قدر الإمكان بالنسبة للأمريكيين"[33]. ومما يزيد في وضوح

---

[32] توماس فريدمان "النيويورك تايمز"، 9 فيفري 2003.
[33] مارك لاسي، "النيويورك تايمز"، 7 - 8 ماي 2003.

التعليق الذي أجراه وولفوفيتز هو أن هذا الأخير يُقدم بصفته من أهم المدافعين عن الحرب الصليبية الساعية إلى "دمقرطة الشرق - الأوسط".

إن لسخط واشنطن على "أوروبا العجوز" جذوراً تمتد إلى عمق أبعد من مجرد الاستخفاف بالديمقراطية. فقد كانت الولايات المتحدة مترددة دائماً بشأن توحيد القارة العجوز. كان هنري كيسنجر لثلاثين سنة خلت، في خطابه حول "عام أوروبا" ينصح الأوروبيين بممارسة "مسؤولياتهم الإقليمية" في "الإطار الشامل للنظام العالمي" المحدّد من قبل الولايات المتحدة. فالطريق المستقلة كانت إذن محظورة. وينطبق نفس القدر من الاهتمام من الآن فصاعداً على منطقة الشمال - الشرقي للقارة الآسيوية، أي منطقة النمو الأكثر حيوية في العالم بفضل مواردها الضخمة واقتصادياتها الصناعية الحديثة. وقد تستطيع هذه المنطقة بدورها أن تفكّر في الاعتراض على نظام عالمي حدّدته واشنطن، لكن على هذا النظام أن يبقى، وإلى الأبد، وبالقوة إن لزم الأمر.

الفصل الثاني

إدوارد سعيد

صدام الجهل

عندما نشرت مجلة "فورين أفيرز" (شؤون خارجية) مقال صمويل هنتنغتون في ربيع 1993 تحت عنوان "تصادم الحضارات" سرعان ما تركّز الاهتمام حوله وأثار موجة مدهشة من ردود الأفعال. وبما أن هدف ذلك المقال هو تقديم أطروحة جديدة للأمريكيين حول "المرحلة الجديدة" التي تمر بها السياسة العالمية بعد نهاية الحرب الباردة، فإن مجموع البراهين التي استند إليها هنتنغتون قد بدت على جانب من الغزارة والجرأة، بل وذات بعد استشرافي ملّح.

كان يضع في حسابه العديد من المنافسين في علم السياسة، أي العديد من المنظّرين مثل فرنسيس فوكوياما وأفكاره عن نهاية التاريخ مثلاً، بل كذلك فيالق المتغنّين بالعولمة والقبلية واضمحلال الدولة. ذلك أنهم حسب رأيه لم يفهموا إلا بعض الجوانب من هذه المرحلة الجديدة. وهو سيعلن من جهته عن (المحور الحاسم والمركزي بالفعل" ل "ما ستكون عليه بوجه الاحتمال سياسة العولمة في السنوات القادمة).

كما يواصل بلا تردد: "فرضيتي هي أن المصدر الرئيسي والأول للصراع في هذا العالم الجديد لن يكون إيديولوجياً ولا اقتصادياً. بل إن الانقسامات الكبرى داخل الإنسانية والمصدر الرئيسي للصراع ستكون ثقافية. وستظل الدولة القومية هي الأقوى من غيرها من حيث دورها على الساحة العالمية، وستنشأ الصراعات الرئيسية في سياسة العولمة بين الأمم والجماعات المنتمية إلى حضارات مختلفة. وسيسيطر تصادم الحضارات على السياسة العالمية، وستكون خطوط الانفصال بين الحضارات هي خطوط القتال لمعارك المستقبل".

يقوم أساس مجموعة البراهين التي تستغرق الصفحات التالية من المقال على مفهوم غامض يسميه هنتنغتون "الهوية الحضارية" وعلى "علاقات التفاعل بين سبع أو ثماني (كذا في النص) حضارات كبرى"، استأثر الصراع بين اثنين منهما، أي الإسلام والغرب بالنصيب الأكبر من اهتمامه. وهو يعتمد في أسلوبه الفكري العدائي هذا على مقال نشره سنة 1990 المستشرق المخضرم برنار لويس Bernard Lewis، صبغته الإيديولوجية فاضحة من عنوان كتابه، وهو "جذور الغضب الإسلامي" The Roots of Muslim Rage.

يقدم المقالان تعريفاً بالهويتين الكبيرتين، أي "الغرب" و"الإسلام" بتهور، كأنّ مسائل بمثل هذا القدر من التعقيد كالهوية والثقافة تنتمي إلى شخصيات من عالم الكرتون مثل بوب آي Popeye وبلوتو Bluto وهما يتلاكمان بضراوة ليكون الأكثر بسالة هو المنتصر دائماً على عدوّه.

من المؤكد أن هنتنغتون - وهو لا يختلف عن لويس في ذلك -، لا يجد الكثير من الوقت ليخصصه للدينامية والتعددية داخل كل حضارة ولا لحقيقة أن السجال الرئيسي داخل معظم الثقافات الحديثة يتعلق بتحديد وتأويل كلّ ثقافة. كما أنهما لا يعيران انتباهاً لاحتمال يتمثل في أن التنطع للكلام عن حضارة أو ديانة بأكملها ينم عن الكثير من الديماغوجيا والجهل الصريح.

كلاّ، فالغرب هو الغرب والإسلام هو الإسلام. ولذلك يقول هنتنغتون إن التحدي الذي يواجهه صانعو السياسة الغربية هو ضمان تفوّق الغرب والدفاع عن هذا التفوّق ضدّ البقية، وضدّ الإسلام خصوصاً.

إن ما يثير المزيد من الانزعاج هو افتراضه أن منظوره - أي استطلاع العالم بأسره من موقعه المتعالي الغريب عن كل الصِّلات والولاءات الخفية - هو وحده المنظور الصحيح، كأنّ الآخرين يتصارعون في كل مكان من أجل أجوبة هي في حوزته مسبّقاً. غير أن هنتنغتون في الواقع إيديولوجي يريد أن يجعل من "الحضارات" و"الهويات" ما هي ليست عليه: أي هويات منطوية على نفسها ومنغلقة ومطهّرة من التيارات والتيارات المعاكسة المتعددة التي تحرك التاريخ الإنساني، والتي منعت هذا التاريخ من احتواء الحروب الدينية والغزو الامبريالي، بل أن يكون كذلك تاريخ تبادل وتلاقح مخصب ومشاركة. هذا التاريخ الذي يمكن ملاحظته بسهولة، يتم تجاهله في الاندفاع إلى تسليط الضوء على مفهوم ساذّج لضيقه واختزاله للتاريخ:

وهو مفهوم "تصادم الحضارات" الذي يعتبر أن الحرب وحدها هي الحقيقة.

حاول هنتنغتون عندما نشر كتابه الحامل لنفس العنوان سنة 1996 أن يمنح برهنته شيئاً من الدقة، وأضاف العديد من الهوامش أسفل الصفحة، لكنه لم ينجح إلا في المزيد من الارتباك ليكشف نفسه ككاتب رديء ومفكر عديم المهارة. فقد بقيت نمذجته الأساسية للغرب مقابل بقية العالم، أي الغرب مقابل ما ليس بالغرب، (وهي صياغة أخرى للثنائية القديمة في الحرب الباردة) على حالها بشكل خفيّ وضمنيّ في المناقشات التي تلت أحداث 11 سبتمبر الرهيبة.

لقد أُقيم الدليل على أطروحة هنتنغتون انطلاقاً من تلك المجزرة الجماعية المخطط لها بدقة، ومن فظاعة تلك الهجمات الانتحارية التي قادتها دوافع مرضية ونفذتها مجموعة صغيرة من المهووسين ذوي العقول المضطربة. وعوضاً عن النظر إلى تلك الأحداث على حقيقتها، أي بوصفها استقطاباً للأفكار الكبرى لمجموعة من المتعصبين المستثارين من أجل أهداف إجرامية، فإن شخصيات بارزة عالمياً، من وزيرة باكستان الأولى السابقة بينظير بوتو إلى الوزير الأول الإيطالي سيلفيو برلسكوني، استعرضوا تعاليمهم حول الاضطرابات المرتبطة بالإسلام.

لكن لماذا لا ننظر على الأرجح إلى التشابهات، على الرغم من أنها ليست على المستوى نفسه من التدمير، بين أسامة بن لادن وأنصاره وما يصدر عن طوائف مثل فرع داود branche

davidienne أو تلاميذ القس جيم جونس في الغويانا أو أعضاء حركة أوم شنري كيو في اليابان Aoum Shinri Kyo؟

لا يمكن حصر الافتتاحيات في كامل الصحافة الأمريكية والأوروبية الهامة التي استعملت معجم التهويل ونهاية العالم، ومن الواضح أن كل استعمال لهذا المعجم لا يهدف إلى إنارة القارئ، بل إلى تأجيج سخطه كغربي قبل أن يُقال له ما يتعين صنعه. وتتمثل المشكلة في استعمال عناوين مثل الإسلام والغرب، وهي عناوين لا تنير القارئ كثيراً، بل تضيّعه وتشوّش الذهن الذي يحاول أن يجد معنى لواقع مشتّت لا يخضع للتصنيف والضبط بسهولة.

أذكر أنني قاطعت شخصاً وقف وسط الجمهور بعد أن قدمت محاضرة في إحدى الجامعات في الضفة الغربية سنة 1994: أخذ يهاجم أفكاري واصفاً إياها ب "الغربية" مقارنة بأفكاره "الإسلامية" الخالصة. فقلت له: "لماذا تلبس بدلة غربية وربطة عنق؟ هذا لباس غربي أيضاً"، كان ذلك هو الجواب الحاضر الساذج تقريباً الذي خطر بذهني. فجلس في مكانه مبتسماً بانزعاج. لكنني تذكرت هذه الحادثة عندما بدأت يوم 11 سبتمبر تتساقط الأخبار حول الإرهابيين، مبدية قدرتهم على التحكم في كل التفاصيل التقنية الضرورية لعملهم الفظيع والإجرامي ضد مركز التجارة العالمي والبنتغون والطائرات التي حوّلوا وجهاتها.

أين نضع إذن الحدّ الفاصل بين التكونولوجيا "الغربية" و"عجز الإسلام عن الانتماء إلى الحداثة" كما عبّر عن ذلك برلسكوني؟

المهمة ليست يسيرة بطبيعة الحال، لكن التصنيفات والتعميمات والمطالبات الثقافية تبدو في النهاية بلا فائدة. هناك على سبيل المثال مستوى تستطيع فيه الأهواء البدائية والمهارة المتطورة جدّاً أن تتلاقى وأن تقوّض حدّاً فاصلاً محصناً، ليس بين الغرب والإسلام فحسب، بل بين الماضي والحاضر أيضاً، وبيننا نحن وهم، إذا كنا لا نريد الحديث عن مفهومي الهوية والقومية بالذات كمصدرين للخلافات والسجالات التي لا تنتهي.

إن قراراً من جانب واحد يهدف إلى رسم خطوط فاصلة على الرمل والدخول في حروب صليبية ومقاومة الشر الذي تجسّده (هذه الحروب) باسم الخير الذي ندافع عنه، واستئصال الإرهاب وحسم الأمر نهائياً - أو بحسب لغة بول وولفوفيتز العدمية، القضاء على أمم بأكملها - إن ذلك لا يزيد من استجلاء أفضل لهذه الكيانات المفترضة بل إن هذا القرار يُبرز بالمقابل كم أن النطق بتصريحات عدوانية لتعبئة الانفعالات الجماعية أسهل من تأمل وتفحص وتحليل ما نواجهه على أرض الواقع، أي ترابط حياة البشر "عندنا" وحياة البشر "عندهم".

على مدى الفترة الممتدة من جانفني إلى مارس 1999 نشرت مجلة "دون" وهي الأسبوعية التي تُحترم أكثر من غيرها في باكستان، سلسلة لافتة للنظر تتألف من ثلاث مقالات، وقد

حلّل فيها الفقيد إقبال أحمد - متوجهاً إلى قرّاء مسلمين - ما سمّاه جذور اليمين الديني، فجلد بقسوة تشويهات الإسلام التي مارسها أنصار الحكم المطلق والطغاة المتعصبون المهووسون بالسيطرة الكاملة على سلوكات الإنسان، داعين بذلك - كما قال - إلى "نظام إسلامي اختزل في قانون جزائي، مجرّدٍ من إنسانيته ومن جماليته ومن اجتهاداته الفكرية ومن إخلاصه الروحي"، مما ينتج عنه تأكيد مطلق لجانب واحد من الدين مجرد من أي سياق، ليحتقر الآخر احتقاراً كلياً. وهذه الظاهرة تشوّه الدين وتحرّف التقاليد وتزّيف العملية السياسية حيثما تنشأ".

وكأحسن مثال على هذا التشويه بدأ أحمد بعرض الدلالات المعقدة والمتعددة والغنية لكلمة "جهاد"، ثم تابع ليبيّن أن حصر هذه الكلمة في معنى واحد هو الحرب من دون تمييز ضد الأعداء المفترضين، يجعل من المستحيل "التعرّف على الديانة أو المجتمع أو الثقافة أو السياسة الإسلامية كما عايشها المسلمون عبر العصور". ويخلص أحمد إلى أن الإسلاميين الآن يهتمون "بالسلطة وليس بالروح وبتعبئة الناس من أجل غايات سياسية، وليس من أجل تقاسم المعاناة والطموحات. فبرنامجهم محدود جداً ويمليه الظرف الزمني". وقد زاد الأمر خطورة بروز أنواع مماثلة من التعصب في خطابات أخرى مثل الخطاب "اليهودي" و"المسيحي".

لقد أدرك جوزيف كونراد J. Conrad في نهاية القرن التاسع عشر عمقاً لم يستطع أن يتصوّره أحد من قرائه وهو أن

الفوارق بين لندن المتحضرة و"قلب الظلمات" ستنهار تحت وطأة ظروف قصوى، وأن القمم التي تبلغها الحضارة الأوروبية ستعود فتغرق على الفور في الممارسات الأكثر بربرية دون إشعار مسبق أو مرحلة انتقالية. كما أن كونراد هو الذي وصف في كتابه "العميل السري" L Agent secret (1907) ترابط الإرهاب مع تجريدات مثل "العلم المحض" (يمكنه أن يشمل مفاهيم مثل "الإسلام" و"الغرب")، كما وصف التدهور الأخلاقي النهائي والأخير للإرهابي.

هناك في الواقع علاقات أكثر قرباً مما يظن معظمنا تجمع بين حضارات تبدو في حالة حرب. ومثلما بيّن ذلك نيتشه وفرويد، فإن التواصل عبر الحدود المحصّنة بعناية والمراقبة كذلك، يتم بسهولة مرعبة في الغالب. ولكن مثل هذه الاعتبارات بما تنطوي عليه من التباس وتشكيك في أفكار نتمسك بها، لا توفّر لنا حقّاً استراتيجية ملائمة وعملية إزاء مثل هذه الأوضاع التي نواجهها اليوم. من هنا، فإن الأسهل في نهاية المطاف هو الركون أكثر إلى المعركة القائمة (الحرب الصليبية والصراع بين الخير والشر والصراع بين الحرية والخوف، إلخ.) المستقاة من التضاد الذي يقيمه هنتنغتون بين الإسلام والغرب، وهو ما اعتمده معجم الخطابات الرسمية في الأيام الأولى من الكارثة. والملاحظ أن حدّة اللهجة في هذا الخطاب قد خفّت فيما بعد بشكل واضح، لكن إذا عدنا خصوصاً إلى اللغة الثابتة من الأقوال والأفعال الحاقدة الموصوفة في الصحافة، دون اعتبار عمليات اللجوء إلى الأحكام

القانونية ضد العرب والمسلمين والهنود حيثما وجدوا في البلاد، فإن النموذج الأصلي لا يزال على حاله.

هناك سبب آخر لبقاء هذا الوضع على حاله، وهو الحضور المتزايد للمسلمين في كل أنحاء أوروبا والولايات المتحدة. وإذا أخذنا اليوم بعين الاعتبار سكان فرنسا وإيطاليا وألمانيا وإسبانيا وبريطانيا وأمريكا والسويد كذلك، علينا الاعتراف بأن الإسلام لم يعد على هامش الغرب، بل في عقر دياره. ولكن ما الذي يجعل حضوره خطراً إلى هذه الدرجة؟

هناك في عمق الثقافة الجماعية، تحيا ذكريات الغزوات العربية الإسلامية الأولى الكبرى التي بدأت في القرن السابع والتي قوم المؤرخ البلجيكي المعروف هنري بيرين H. Pirenne في مؤلفه البارز "محمد وشارلمان" (1936) أنها قوضت الوحدة التاريخية للمتوسط بصورة نهائية ودمّرت التوليفة الرومانية - المسيحية لتؤدي إلى انبثاق حضارة جديدة تسيطر عليها قوى الشمال (ألمانيا وفرنسا الكارولية) التي تمثلت مهمتها - كما يقول - في العودة إلى الدفاع عن الغرب ضد أعدائه التاريخيين على الصعيد الثقافي.

لكن بيرين يغفل للأسف التذكير بأن الغرب في إنشائه هذا الخط الجديد للدفاع عنه قد عاد إلى الإنسانوية والعلم والفلسفة وعلم الاجتماع والتأريخ في إطار حضارة الإسلام، وقد تداخل كل ذلك بين عالم شارلمان والعصر الكلاسيكي. فالإسلام

موجود منذ البداية في داخلنا، حتى دانتي نفسه وهو من ألدّ أعداء محمّد سلّم به واضعاً النبيّ في قلب "جحيمه".

وهناك الإرث المستمر للديانات التوحيدية، أي الديانات الإبراهيمية مثلما سماها لويس ماسينيون. وبدءاً باليهودية والمسيحية، فإن كل ديانة مسكونة بما جاء قبلها: فبالنسبة للمسلمين مثلاً ينجز الإسلام ويتمّم رسالة النبوة. وليس هناك حتى الآن تاريخ أو تحليل عقلاني للصدام المتعدد الأوجه بين أتباع الديانات الثلاث - فكل منها لا يشكل معسكراً واحداً متماسكاً، بل مجموعة من التوجهات - إلا أن الالتقاء الدموي الحديث في أرض فلسطين يقدم مثالاً واضحاً لا دينياً على الاستعصاء المأسوي للتصالح بينهما.

ليس من المدهش إذن أن يتحدث مسلمون ومسيحيون بطيبة خاصة عن الحرب الصليبية والجهاد، ولا يتم ذلك دون أن يراوغ البعض بالنسبة للبعض الآخر بلا مبالاة باهرة في الغالب، الحضور اليهودي. يقول إقبال أحمد إن مثل هذا البرنامج "مُطمئن جداً للرجال والنساء المحبوسين في المياه العميقة بين التقاليد من جهة والحداثة من جهة ثانية". لكننا نسبح جميعاً - غربيين ومسلمين وآخرين - في تلك المياه العميقة. وبما أن هذه المياه جزء من محيط التاريخ، من العبث محاولة فصلها بنصب حواجز فيها. إننا نعيش حقبة توتّر، لكن من الأنسب تناولها من خلال علاقات القوة والضعف لدى الجماعات والسياسات العلمانية والعقلانية مقابل الجهل،

والمبادئ الشمولية للعدل مقابل الظلم، لا أن نتوه وراء تجريدات فضفاضة قابلة لسد حاجاتنا مؤقتاً، لكنها لا تقدم معرفة للذات أو تحليلاً واعياً.

إن أطروحة "تصادم الحضارات" هي بدعة مثل "حرب الأكوان"، تصلح لتأكيد الغرور الدفاعي، وليس لإتاحة فهم نقدي لعلاقة الترابط المذهلة في زماننا.

"لوموند" أكتوبر 2001

هلاّ يسمعني أحد؟

يكرر الأمريكيون بصفتهم مسؤولين سياسيين وخبراء محليين وأعضاء رسميين في الإدارة وصحفيين - اتهامات للإسلام والعرب تتردد مثل لازمة في أغنية رتيبة. ثم انضمت إلى هذه الجوقة السلطة التابعة لبرنامج الأمم المتحدة للتنمية التي جاء في تقريرها أن العرب يجدون أنفسهم في المرتبة الأخيرة بالنسبة للعالم أجمع من حيث الديموقراطية والمعرفة وحقوق النساء. وكلٌ يؤكد (بالاعتماد على بعض المبررات بطبيعة الحال) على ضرورة إصلاح الإسلام وعلى أن النظام التعليمي العربي كارثي.

والعرب الوحيدون "الصالحون" إذن، حسب تلك الجوقة هم أولئك الذين يُقدمون في وسائل الإعلام على تحقير الثقافة والمجتمع العربيين الحديثين دون تمييز، ويقولون بأن ما ينقصهم هو الديموقراطية، وبأنهم لم يتحدّوا الإسلام بدرجة كافية، وبأن عليهم أن يفعلوا الكثير لطرد شبح القومية العربية وعقيدة الوحدة العربية: فكل ذلك ليس سوى من سَقَط المتاع الإيديولوجي، فاقد الاعتبار. كما يقولون بأن الأمر الوحيد الصحيح

هو ما نقوله نحن وما يقوله أسيادنا الأمريكان عن العرب وعن الإسلام. فعلي(نا) أن نلتحق بالحداثة، وأن نكون باختصار غربيين ومعولمين ومناصرين لحرية التجارة وديموقراطيين.

إن ما يثير الاهتمام في مشهد الخراب التام هذا هو عدم فاعلية العالم العربي المطلقة وعجزه. فالحكومة الأمريكية وخدمها يضاعفون من عدد التصريحات التي تحدد برامجهم، ويحركون الجيوش والعتاد وينقلون دبّابات الاقتحام والمطاردات النّسافة. لكن العرب يكادون لا يصلون فردياً أو جماعياً إلى استجماع شجاعتهم وإعلان رفض محتشم (يقولون في أفضل الحالات: "لا يمكنكم استخدام قواعد عسكرية على أرضنا"). ليتراجعوا عن موقفهم بعد بضعة أيام.

لكن من يطرح الأسئلة الحياتية التي تخص مصيرنا بوصفنا شعباً؟ لا يمكننا الاستمرار في تفويض المهمة إلى لغط المتعصبين الدينيين والنعاج المستسلمة والقدرية. وتبقى معظم البلدان العربية، من أعلى إلى أسفل، مدفونة في كراسيها، بينما تتهددها أمريكا وترسل المزيد من السفن والمزيد من الجنود ومن طائرات الـ F 16 استعداداً لتنفيذ الضربات. إن صمت (هذه البلدان) مُصمّ للآذان.

إنها سنوات من التضحيات ومن النضالات، من العظام المهمشة في مئات السجون وغرف التعذيب من المحيط الأطلسي إلى الخليج، أسرٌ محطّمة وفقر ومعاناة بلا نهاية. قوات عسكرية ضخمة وباهظة. لِمَ كل هذا؟

لا يتعلق الأمر هنا بمسألة حزب أو إيديولوجيا أو زمرة معينة، بل إنه يتعلق بما سماه المعلم اللاهوتي الكبير بول تيليش Poul Tillich بـ "الجدّية النهائية". فالتكنولوجيا والتحديث والعولمة لا تمثل إجابة على ما يتهددنا بوصفنا شعباً. ولدينا في تقاليدنا مدوّنة كاملة من الخطابات العلمانية والدينية التي تتناول البدايات والنهايات والحياة والموت والحب والغضب والمجتمع والتاريخ. هنا تكمن الإجابة، لكن لا صوت - يملك صاحبه نظرة واسعة أو سلطة معنوية - يقتبس (من هذه المراجع) ويوّجه الأنظار إلى كل ذلك.

ألم يحن بالنسبة لنا الوقت جماعياً لصياغة بديل عربي بصورة شرعية إزاء هذه الخيبة التي تكاد تُغرق عالمنا إن الأمر ليس مجرد تغيير عادل لنظام حكم معيّن. والله أعلم أننا خبراء في ذلك. ولا يمكن بالتأكيد العودة إلى أوسلو. فهلاّ يطلع علينا أحد في وضح النهار ليقترح رؤية لمصيرنا لا تقوم على سيناريو خطط له دونالد رامسفيلد وبول وولفوفيتز، أي رمزا السلطة الفارغة والغطرسة والصّلف؟

فهلاّ يسمعني أحد؟

نُشر المقال في (الأهرام ويكلي، القاهرة، 16 جانفي 2003)

أعيد نشره في (لوموند ديبلوماتيك، عدد جويلية 2005)

إدوار سعيد

ولد في القدس في العام 1935، أستاذ الأدب الإنكليزي والمقارن في جامعة كولومبيا، نيويورك. له أكثر من واحد وعشرين كتاباً ترجمت إلى ست وثلاثين لغة. حافظ رغم بعد المسافة التي تفصله عن فلسطين على صلة حميمية بها وبقضية شعبها المشرّد. وتظهر هذه الصلة من خلال اختيار الموضوعات التي يتناولها في بحوثه. فالعمل الأول كان أطروحة لنيل الدكتوراه في جامعة هارفرد حول جوزيف كونراد الذي عبّر من خلال كتابه (في قلب الظلمات) عن نظرة هي الأشد قتامة بالنسبة إلى الكولونيالية [وقد تعرض سعيد لذلك فيما بعد في كتابه (الثقافة والامبريالية، 1993)]، ثم سيؤلف كتابه (الاستشراق، 1978) الذي سيجعل منه ناقداً مشهوراً وأحد أبرز زعماء التيار الفكري الخاص بالدراسات الما بعد كولونيالية les postcolonial studies.

كان إدوار سعيد أبرز مدافع عن قضية فلسطين في الولايات المتحدة ومن أبرز المعارضين المبدئيّين لسياسة "السلطة الوطنية الفلسطينية" منذ اتفاق أوسلو.

رحل عنا بجسده نتيجة إصابته بسرطان الدم في 25 سبتمبر 2003.

نذكر من بين كتبه المنقولة إلى العربية:

- **الاستشراق**: المعرفة، السلطة، الإنشاء، ت: د. كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، 1981.

- **الثقافة والامبريالية**، ت: د. كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت 1997.

- **خارج المكان**، ت: د. فواز طرابلسي، دار الآداب، 2000.

- **نهاية عملية السلام**، أوسلو وما بعد، ت: ثائر ديب، دار الآداب، 2002.

- **تأملات حول المنفى I**، ت: ثائر ديب، دار الآداب، 2003.

- **فرويد وغير الأوروبيين**، ت: نائلة حجازي، دار الآداب، 2004.

- **إسرائيل، العراق، الولايات المتحدة**، ت: نائلة حجازي، دار الآداب، 2004.

- **نظائر ومفارقات**: استكشافات في الموسيقى والمجتمع، ت: نائلة حجازي، دار الآداب، 2004.

- **الثقافة والمقاومة**، ت: علاء الدين أبو زينة، دار الآداب، 2006.

- **تأملات حول المنفى II**، ت: ثائر ديب، دار الآداب، 2006.

- **الإنسية والنقد الديموقراطي**، ت: فواز طرابلسي، دار الآداب، 2006.

- **السلطة والسياسة والثقافة**، ت: نائلة حجازي، دار الآداب، 2006.

الفصل الثالث

إدغار موران

هل ينحدر العالم إلى الهاوية؟

ينحدر العالم إلى الهاوية

أتاح التقدم العلمي صناعة أسلحة الدمار الشامل، أي الأسلحة النووية والكيماوية والبيولوجية، كما أتاح تكاثرها. وأدّى التقدم التقني إلى واقع تدهور المحيط، كما اتسعت الحلقة المفرغة بين نموّ البيئة وتدهورها. وخلقت عولمة السوق الاقتصادية، دون ضبط أو ضبط - ذاتي حقيقي، مجموعة جزر صغيرة للثراء، لكنها خلقت كذلك مناطق فقر متنامية، ثم إنها أحدثت وستُحدث سلسلة من الأزمات، كما أن امتدادها مستمر في ظلّ فوضى تساهم فيها هي نفسها بقوة. إن تطورات العلم والتقنية والصناعة والاقتصاد التي أصبحت تدفع سفينة الأرض الفضائية لا تخضع للضبط السياسي أو الإتيكي. ولذلك فإن ما يبدو أن من شأنه أن يضمن التقدم المؤكد يتيح بطبيعة الحال إمكانيات خاصة بالتقدم في المستقبل، لكنه يسبّب المخاطر أيضاً ويزيد من عددها.

تصاحب هذه التطورات ارتدادات بربرية عديدة. تتعدّد الحروب على هذا الكوكب وهي تختّص بمكوّناتها اللاتينية -

الدينية أكثر فأكثر. وينحسر الوعي المدني في كل مكان، وينخر العنف المجتمعات. إن إجرام المافيا أصبح كونياً. قانون العدالة يُستبدل بقانون الثأر بحجّة أنه يمثّل العدالة الحقّ. التصورات المانوية تستأثر بالعقول التي احترفت العقلانية. ينطلق المتحمسون لله إلى حدّ الجنون والمتحمسون للذهب إلى حدّ الجنون من عقالهم. النوعان من الجنون مترابطان: الصلة بينهما هي أن العولمة الاقتصادية تتيح تمويل الإرهاب الذي يرمي إلى ضرب هذه العولمة بكل شدة. في هذا المجال مثلما هو الشأن في مجالات أخرى، تتوحّد البربرية الحاقدة القادمة من كهوف العصور السحيقة مع بربرية مجهولة الاسم وباردة خاصة بحضارتنا.

[تتعدّد أشكال التواصل على هذا الكوكب لكن اللاتفاهم يزداد. كما أن ترابط المجتمعات (أي حاجتها إلى بعضها البعض) في نموّ لكنها تبدو مستعدة أكثر فأكثر للتقاتل]

التغريب يجمع العالم لكنه يؤدي - كردّ فعل - إلى الانغلاق حول الهوية اللاتينية والدينية والقومية. الاعتقادات الثابتة اللاعقلية تُضلّل من جديد، بل إن العقلانية المجرّدة والمقدّرة للحسابات الاقتصادية والمشرفة على التسيير الإداري والتكنوقراطية، عاجزة عن تناول المشكلات في شموليتها الإنسانية والكونية. تبصر العقولُ المجرّدة عمى المتعصّبين ولا تبصر عماها، يتضافر النوعان من العمى، عمى اللاعقلانية المجسّدة وعمى العقلانية المجرّدة، ليُغرقا القرن الطالع في الظلام.

سبق وأن أكّدت منذ وقت بعيد على أن الشرق الأوسط يوجد في قلب منطقة هزّات كونية تتجابه فيها الديانات فيما بينها. الديانات واللائيكية، الشرق والغرب، الشمال والجنوب، البلدان الفقيرة والبلدان الغنية. والصراع الإسرائيلي - الفلسطيني الموجود في قلب هذه المنطقة الزلزالية، يمثّل في حدّ ذاته سرطاناً ينذر انتقاله بالانتشار في أرجاء الكرة الأرضية. إن التدخلات الكبيرة لجماعات تسهال Tsahal في الأرض الفلسطينية والعمليات الانتحارية في الأرض الإسرائيلية، كثّفت الحلقة الجهنّمية المفرغة التي لم يعد من الممكن تحديد مكانها. فالقمع الدموي الذي تمارسه إسرائيل أثار موجة كبيرة من الاعتداءات، تستهدف اليهود في العالم، وقد استعادت هذه الموجة في داخلها الموضوعات القديمة للنزعة المسيحية لمعاداة اليهود ثم للنزعة القومية الغربية، بحيث يتم تعميم الحقد تجاه إسرائيل في شكل حقد تجاه اليهودي. وقد وسّع العنف الأعمى للانتحاريين الفلسطينيين ولهجومات القاعدة من موجة الاعتداءات التي تستهدف الإسلامي - ليس فقط في إسرائيل بل كذلك في الغرب، وليس فقط لدى يهود الشتات بل بشكل أوسع في أوساط مختلفة مثلما بيّن ذلك كتاب أوريانا فاللاّسي Oriana Fallaci ضد الإسلام (**الغضب والكبرياء**، منشورات بلون)، ضد ديانة اختزلت في جناحها المتعصّب والرجعي.

يمكن لتفاقم الوضعية أن يخلق بؤراً جديدة للصراع داخل الأمم. وفرنسا التي تؤوي عدداً كبيراً من السكان من أصل مسلم

وعدداً هاماً من السكان من أصل يهودي، قد استطاعت إلى حدّ الآن أن تجتنب إمكانية أن يؤدّي العنف من جانب شبان مغاربة فرنسيين والغضب المناصر لإسرائيل إلى المواجهة. ولكن قد يؤدي هيجان جديد في الشرق الأوسط إلى تزايد الحقد والعنف، وستصبح فرنسا اللائيكية مسرحاً لحرب أثنية دينية بين صنفين من مواطنيها. وبالإضافة إلى ذلك فإن تنظيم القاعدة، رغم أن نشأته لم ترتبط بالصراع الإسرائيلي - الفلسطيني، قد استأثر بعد هجوماته في كينيا بالقضية الفلسطينية لتبرير مجازره. إن الحلقة المفرغة الإسرائيلية - الفلسطينية أصبحت معمَّمة في العالم بأسره، والحلقة المفرغة "الغرب - الإسلام" تتفاقم. وحرب العراق ستلغي مستبدّاً مرعباً لكنها ستزيد من الصراعات والأحقاد والانتفاضات وأعمال القمع والرعب، وتنبئ بتحويل انتصار للديمقراطية إلى انتصار للغرب على الإسلام. كما أن موجات العداء لليهودية وللإسلام ستتدعم والمانوية ستجد مكانها داخل تصادمٍ للبربريات سُمّي ب "تصادم الحضارات".

لقد أصبح المسؤول عن أكبر قوة غربية مُطلق جنّ apprenti sorcier (يسبّب أحداثاً يعجز عن إيقافها)، فهو بمقاومته القصيرة النظر لنتائج الإرهاب، يوفّر الأسباب التي تؤدي إليه، وهو بمعارضته لضوابط التسوية الاقتصادية والإكولوجية، يزيد من تدهور البيئة.

تسبّبت بربرية القرن العشرين في مناطق عديدة للبشر في آفتي الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية وإطلاق نظامين كليانيين كبيرين. إن ملامح بربرية القرن العشرين ما زالت مرسومة

في القرن الواحد والعشرين لكن بربرية القرن الواحد والعشرين التي مهدّت لها هيروشيما تحمل شيئاً آخر في داخلها، وهو إمكانية التدمير الذاتي للإنسانية. لقد أثارت بربرية القرن العشرين رعباً بوليسياً وسياسياً واعتقالياً. أما بربرية القرن الواحد والعشرين، فهي تحمل معها بعد الحادي عشر من سبتمبر 2001 إمكانية لا محدودة للرعب الكوني.

لا يمكن للأمم أن تقاوم البربرية الكونية إلا بانغلاقها بصفة ارتدادية على نفسها، ممّا يدعّم هذه البربرية. إن أوروبا عاجزة عن إثبات وجودها سياسياً، عاجزة عن الانفتاح وإعادة تنظيم نفسها، عاجزة عن تذكّر حقيقة أن تركيا كانت قوة أوروبية عظمى منذ القرن السادس عشر، وأن الإمبراطورية العثمانية قد ساهمت في حضارتها. (وهي تنسى أن المسيحية هي التي لم تبد في الماضي تسامحاً بالنسبة إلى أي ديانة أخرى بينما كان الإسلام الأندلسي والعثماني يقبل المسيحية واليهودية). وعلى الصعيد العالمي، حالات الوعي متفرّقة - وأممية المواطنة - في طور نشأتها - ما زالت جنينية - ولم ينبثق المجتمع المدني الكوني بعد. فوعي المجموعة الإنسانية ذات المصير الواحد على الأرض ما زال مشتتاً. ولم يتم التعبير عن خيار حقيقي بعد.

إن فكرة التنمية، حتى تلك المتعارف عليها بوصفها "مستديمة"، تقدّم حضارتنا المأزومة كمثال يُقتدى به، أي هذه الحضارة التي تستوجب الإصلاح. وهي حضارة تعوق العالم عن إيجاد أشكال تطور مغايرة للأشكال المستنسخة وفق النموذج

الغربي، كما أنها تحول دون توليد انصهار للحضارات يندمج فيه أفضل ما في الغرب (حقوق الرجل والمرأة، معاني الديمقراطية) ويستبعد الأسوأ. إن ما يحرّك التنمية نفسها هي قوى غير مراقبة تدفع إلى الكارثة. يقترح جان - بيير ديبوي J- p Dupuy في كتابه من أجل كارثية مستنيرة (سلسلة "لون الأفكار" لوسوي)، إدراك حتمية الكارثة لاجتنابها. لكن علاوة على أن الشعور بالحتمية يمكن أن يؤدي إلى السلبية، فإن ديبوي يُماثل بصورة مجحفة المحتمل le probable بالمحتوم inevitable. إن المحتمل بالنسبة للملاحظ في زمن ومكان معيّنين حين تكون لديه أنجع المعلومات، هو ما يبرز بوصفه السيرورة القادمة. وبالفعل فإن كل السيرورات الراهنة تؤدي إلى الكارثة. لكنّ غير المحتمل يبقى ممكناً. وقد بيّن لنا التاريخ في الماضي أن بإمكان غير المحتمل أن يعوّض المحتمل، مثلما كان الشأن في نهاية العام 1941 وبداية العام 1942 عندما أصبح المحتمل، أي سيطرة الامبراطورية الهتلرية الطويلة على أوروبا، غير محتمل، ليفسح المجال للمحتمل، أي انتصار الحلفاء. في الواقع، إن كل تجديد عظيم في التاريخ قد قوّض الاحتمالات: كان ذلك هو شأن رسالة عيسى وبولس ورسالة محمد وتطور الرأسمالية ثم الاشتراكية.

فالباب إذن مفتوح على غير المحتمل، وإن جعله استفحال البربرية في العالم أمراً لا يمكن تصوّره في الوقت الراهن.

وبشكل متناقض، فإن الفوضى التي يوشك أن يغرق فيها العالم، تحمل في داخلها فرصته الأخيرة. لماذا؟ أولاً لأن قرب الخطر

يتيح حالات الوعي التي يمكن إذن أن تتعدد وأن تكبر وأن تفضي إلى انبثاق سياسة كبرى لخلاص أرضي. ثم للسبب التالي بالخصوص: وهو أن أي نسق، عندما يعجز عن معالجة مشكلاته الحيوية، فهو إما أن ينحلّ وإمّا أن يعجز في انحلاله بالذات عن استحالته إلى نسق مغاير أكثر غنى وقادر على معالجة هذه المشكلات. إن الإنسانية عاجزة في الوقت الراهن عن معالجة أكثر مشكلاته حيوية، انطلاقاً من مشكلة بقائها نفسها. وهي قادرة تقنياً على القضاء على المجاعة في العالم لكنها عاجزة عن ذلك سياسياً. ويبلغ هذا العجز اليوم أوجه في المفارقة الأرجنتينية. فالإنتاج الغذائي في الأرجنتين يفوق خمس مرات احتياجات السكان، بينما يعاني عدد كبيرة من الأطفال (25 % في إقليم توكومان) من خطر سوء التغذية. وهكذا فإن من المستحيل في العالم الراهن تحقيق الممكن.

إن فكرة المفعول الارتجاعي feed – back الإيجابي هنا مفيدة بالنسبة إلينا. هذا المفهوم الذي صاغه نوربير وينر Norbert Wiener يعني عمليتي التضخيم والتسريع غير المراقبتين لنزعة معينة داخل نسق معين. في عالم الفيزياء يؤدي المفعول الارتجاعي الإيجابي - بلا خطأ - بهذا النسق إلى الانحلال. بينما في عالم البشر - ومثلما حدّد ذلك ماغورد ماروواما Magoroh Maryama - يمكن أن ينتج المفعول الارتجاعي الإيجابي عبر انحلال بنى متصلبة قديمة، ظهور قوى للتغيير والتجديد. إن تحول الدودة إلى فراشة يقدم لنا استعارة مهمة:

عند دخول الدودة في الشرنقة، يبدأ التدمير الذاتي لبنيتها كفراشة وهذه السيرورة هي في الوقت نفسه سيرورة تشكل بنية الفراشة، وستكون هذه البنية بنية الدودة نفسها وغيرها في آن واحد. تلك هي سيرورة التحول. إن تحوّل الفراشة منظّم قبلياً. أما تحول المجتمعات البشرية إلى مجتمع كوني فهو صدفوي وغير محقق، كما أنه معرض للأخطار القاتلة التي تظل مع ذلك ضرورية بالنسبة إليه. لذلك توشك الإنسانية أن تغرق، بينما هي تتمخض عن مستقبلها.

ولكن،كما أن بنيتنا العضوية تحمل في داخلها خلايا - أصولاً غير متميزة، وقادرة - مثل الخلايا الجنينية - على خلق كل الأعضاء المختلفة لكياننا، فإن الإنسانية تحمل في داخلها مزايا نوعية generiques تتيح عمليات الخلق الجديدة؛ وإذا كان من الصحيح أن هذه المزايا نائمة ومكبوتة وراء تخصصات مجتمعاتنا تصلباتها، فإن الأزمات المعمّمة التي تزعزعها وتزعزع الأرض قد تستطيع أن تثير سيرورة التحول التي أصبحت حيوية. ولذلك لابد من المرور باليأس لاستعادة الأمل.

إدغار موران

لوموند، 1 جانفي 2003

إدغار موران

عالم اجتماع فرنسي ولد بباريس في العام 1921، كتب دراسة سوسيولوجية حول تطور وحدة تقسيم إداري (commune) تقع في بريتاني تسمّى plodemet سنة 1967، واهتم بقضايا الاتصال الجماهيري (السينما أو الإنسان الخيالي، 1956) وقد خصّص ل (إشاعة أورليون) كتاباً صدر سنة 1969 أصبح مرجعاً كلاسيكياً في مثل هذه الظواهر. ثم ابتعدت كتبه اللاحقة عن علم الاجتماع المحض لتتوجه نحو "انثربوسوسيولوجيا أساسية متجذرة في العالم المادي والبيولوجي" (البراديغم المفقود: الطبيعة الإنسانية، 1973). فانضم إلى الممثلين البارزين لنظرية عامة للأنساق يكون فيها مفهوم التركيب complexite جوهرياً (نشير هنا إلى كتابه - المنهج - ويضم ستة أجزاء، صدر الجزء الأول: طبيعة الطبيعة سنة 1977 وصدر الجزء السادس: الإتيكا سنة 2004). وتتميز مجلته Communications التي يديرها بمقارباتها المتعددة الاختصاصات كالاختصاص الأنثربولوجي والاختصاص اللغوي.

سعى إدغار موران إلى إيجاد أدوات ذهنية من شأنها أن تواجه تركيباً واقعياً لا يختزل، وذلك بالاعتماد خاصة على نظرية الأنساق ونظرية التنظيم الذاتي ومن خلال نحت مفاهيم جديدة (مبدأ التكرارية والحوارية ومبدأ الهولوغرافية principe hologrammique، إلخ). ولابد للمسعى التركيبي من مواجهة تحديات عديدة وهي:

- البحث في العلاقة المفصلية بين الذات وموضوع المعرفة؛

- والبحث في تشابك مختلف العوامل (البيولوجي والاقتصادي والثقافي والنفسي...) التي تتضافر في كل ظاهرة إنسانية؛

- والبحث في الصلات التي لا تُفصم بين النظام واللانظام؛

- وتناول الظواهر الإنسانية مع الأخذ بعين الاعتبار التفاعلات وبروز الظواهر الجديدة؛

- والبحث في الحدث من خلال الجانب الخلاّق فيه والمتميز.

من مؤلفات إدغار موران بعد صدور ستة أجزاء من كتابه (المنهج) la Methode عن منشورات سوي، سلسلة Points essays نذكر:

- Pour sortir du xxe siècle, 1981 reed. Seuil, coll. “Points essays” 1984.

- Souologie, 1984, reed.. Seuil, coll. “Points essays” 1994.

- Penser, Europe, 1987, reed. Gallimard, coll, “Folio actuel” 1990.

- Introduction a la pensee complexe, 1990, reed. Seuil, coll. "Points essays" 2005.

- Une politiqque de civilization, avec Sami Nair, Arlea, 1997.

- Le Monde modern et la question juive, Seuilm 2006.

نُقل أحد كتبه إلى العربية تحت عنوان:

- الفكر والمستقبل، مدخل إلى الفكر المركّب، ت: منير الحجوجي وأحمد القصوار، دارتوبقال للنشر، المغرب 2004.

الفصل الرابع

يورغن هابرماس

التمثال والثورويون

بغداد يوم التاسع من نيسان: استطاع العالم بأسره متابعة ذلك المشهد: جنودٌ أمريكان يلفّون أنشوطة حول عنق الديكتاتور وأمام جمع يهلّل، يسقطونه من على قاعدته. مما يجعل هذه الحركة على قدر عال من الرمزية. النّصب الذي لا يتزعزع ظاهرياً يبدأ في التمايل ثم ينهار بعد فترة قصيرة من الصمود، في آخر لحظة من لحظات الرعب.

مثلما "تنقلب" صورة ذات وجهين، بما أننا نرى الشكل الذي أفلت منا من الوهلة الأولى، يبدو أن الإدراك العام للحرب قد انقلب بحدوث هذا المشهد. وبدا أن "الصدمة" و"الترويع" في ذلك اليوم قد تحولا إلى تحرير استقبله مواطنون تخلصوا من الرعب ومن القمع في جو من الحماس. تنطوي كل من هاتين الرؤيتين بلا ريب على جانب من الحقيقة مثير لمشاعر متعارضة. فهل ينبغي أن يقود تناقض المشاعر إلى أحكام متناقضة؟

للوهلة الأولى، القضية بسيطة. تظل الحرب غير القانونية عملاً مخالفاً للقانون الدّولي وإن أدّى إلى نتائج مأمولة من وجهة نظر معيارية. لكن النتائج الوخيمة يمكن أن تنزع المشروعية عن النية الحميدة، فلماذا لن تستطيع النتائج الحميدة أن تتيح - بصور بعدية - المقدرة على إقرار المشروعية؟

مدافن العظام والزنزانات المدفونة تحت الأرض وشهادات المعذّبين لا تترك أي مجال للشك في نهاية الأمر في الطبيعة الإجرامية للنظام. ويعني ذلك في ميداننا العام السياسي نوعين من رد الفعل. هناك أولاً ردّ فعل البراغماتيين الذي يؤمنون بالقوة المعيارية للفعلي factual ويعوّلون على حكمهم التطبيقي؛ فهم يضعون الحدود السياسية للجانب الأخلاقي ليثمّنوا بالظاهر ثمار الانتصار. والاستدلال بالنسبة إليهم حول شرعية الحرب عقيم، لأن الحرب في الأثناء أصبحت فعلاً تاريخياً. ثم هناك ردّ فعل الذين استسلموا بسبب الانتهازية أو الاقتناع، أمام الأمر الواقع، وهؤلاء سيعتبرون التمسك بالقانون الدولي دوغمائياً. ويبرّرون موقفهم بأن شجب مخاطر العنف العسكري ونفقاته طريقة للتغاضي عن القيمة الحقيقية الوحيدة وهي الحرية السياسية.

وقع ردّ الفعل بطريقتين تنمان عن نظر قصير، فهما تهاجمان بشكل سطحي "النزعة الأخلاقية الباهتة" لكنهما تمتنعان عن تفسير ما ينوي المحافظون الجديد في واشنطن أن يحلّوه محلّ عنف الدولة عن طريق القانون الدولي. إن ما

يجعله بالفعل هؤلاء المحافظون الجدد معارضاً لأخلاق القانون الدولي، ليست الواقعية ولا رومانسية الحرية بل هو التصميم الثوروي: بما أن القانون الدولي مُعطّل، فإن فرض أكبر نجاح سياسي - أي الليبرالية - عن طريق الهيمنة لتكون نظاماً عالمياً، يُعدّ كذلك أمراً مبرّراً أخلاقياً، وإن وجب اللجوء من أجل ذلك إلى وسائل منافية للقانون الدّولي.

وولفوفيتز ليس كيسنجر. هو ثوري وليس صاحب نزعة كلبية في السلطة. من المؤكد أن القوة الأعظم الأمريكية تحتفظ بحق التصرّف من جانب واحد لتدعم عند الاقتضاء بواسطة السلاح موقف هيمنتها إزاء كل منافس محتمل. لكن ممارسة السلطة الدولية ليست بالنسبة إلى هؤلاء الإيديولوجيين الجدد غاية في حد ذاتها. ما يميز المحافظين الجدد المنتمين إلى المدرسة "الواقعية" هو الرؤية الخاصة بسياسة دولية أمريكية قادمة من المسالك الإصلاحوية لسياسة منظمة الأمم المتحدة الخاصة بحقوق الإنسان. تلك الرؤية لا تحيد عن الأهداف الليبرالية لهذه السياسة لكنها تنسف الإكراهات التمدينية التي يفرضها دستور الأمم المتحدة.

فالأمم المتحدة لم تكن على الأرجح قادرة على إرغام الدول المنحرفة عن الخط لحملها على أن تضمن لمواطنيها نظاماً ديمقراطياً. وبالإضافة إلى ذلك فإن السياسة المتبعة في مجال حقوق الإنسان ما تزال انتقائية - لكن الحفاظ على السلم -

وهي وظيفة مركزية مرتبطة في الأصل بوجود الأمم المتحدة - ليس أدنى أهمية. بمعنى آخر، يجب أن تتواصل منظمة الأمم المتحدة إلى فرض منع كل حرب هجومية وأن تعمل بالتالي على احترام إلغاء حق الحرب jus ad bellum كنتيجة للحرب العالمية الثانية. ويمثّل هذا الإلغاء حدّا لسيادة الدّول لكنه كان مع ذلك بالنسبة إلى القانون الدولي الكلاسيكي خطوة حاسمة في اتجاه إرساء وضعية للحق الكوسموبوليطيقي.

الولايات المتحدة التي أصبح من الممكن أن تُعد بلداً يعطي المثال في هذا الاتجاه، لم تقوض بواسطة الحرب على العراق هذه السمعة فحسب بل إنها تخلت كذلك عن دورها كقوة قادرة على ضمان تطبيق القانون الدولي. ثم إنها توفّر بالإضافة إلى ذلك لأعظم القوى في المستقبل مثالاً تخريبياً. لا ننخدع إذن: فتسلط أمريكا المعياري منهار.

لم يتوفر أي شرط مسبّق من شروط التدخل العسكري المطابق للقانون: لم توجد حالة دفاع عن النفس لها علاقة بهجوم فعلي أو محتمل ولا إجازة بقرار من مجلس الأمن طبقاً للفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة. بل إن العملية كلها تحوّلت إلى تهريج عندما أخذ رئيس الولايات المتحدة يكرر القول بأنه سيتحرك عند الاقتضاء دون تفويض من مجلس الأمن. على ضوء عقيدة بوش لم يكن للانتشار العسكري في الخليج طابع التهديد أبداً. أي أن هناك افتراضاً مسبقاً بأن العقوبات التي يقع التلويح بها يمكن تفاديها.

وحتى المقارنة مع التدخل في كوسوفو لا تستطيع أن تبرر التنصل من المسؤولية. ومن المؤكد كذلك في هذه الحالة أن تفويض مجلس الأمن لم يتوفّر. لكن أمل التوصل إلى إضفاء المشروعية بصورة بعدية - وقد تم ذلك - يمكن أن يستند إلى ثلاثة عوامل: أولاً العمل على وضع حدّ للتطهير الاثني الذي نعرف أنه كان جارياً. ثانياً الأمر الموجّه للجميع بمساعدة كي شعب معرّض للخطر. وأخيراً حقيقة أن كلّ الدول الأعضاء في التحالف العسكري دول قانون ديمقراطية بصورة لا تقبل المنازعة. أما اليوم فالغرب نفسه هو المنقسم بسبب الخلاف المعياري.

منذ تلك الحقبة، مع ذلك، وفي نيسان / أفريل 1999، لُوحظ أن فرقاً واضحاً أخذت ترتسم ملامحه بين القوى الأوروبية القارّية والقوى الانكلوسكسونية، داخل استراتيجيات التسويغ. فبينما يتم السعي من جهة في استخلاص الدرس من مأساة سريبرينيكا بالحد من المسافة الفاصلة بين النجاعة والمشروطية وذلك بواسطة التدخل العسكري، أصبح توسيع النظام الليبرالي الغربي - من جهة أخرى - بما في ذلك بواسطة التدخل العسكري، أصبح توسيع النظام الليبرالي الغربي - من جهة أخرى - بما في ذلك خارج الحدود وبواسطة العنف إن لزم الأمر، هدفاً معيارياً مُرضياً.

وقد عزوت ذلك التباعد إلى التقاليد القانونية المختلفة - مُرجعاً النوع الأول من هذه التقاليد إلى الكوسموبوليتية

(المواطنة العالمية) الكانطية والنوع الثاني إلى القومية الليبرالية لجون ستيورات ميل. لكن على ضوء النزعة الأحادية للهيمنة التي قد تكفّل من يلهمون اليوم عقيدة بوش بالدفاع عنها سنة 1991، يُقال بصورة استعادية إن الوفد الأمريكي قد أجرى المفاوضات في رامبوييه Rambouillet ضمن هذا التطور الأصلي. ومهما يكن من أمر فإن قرار جورج بوش باستشارة مجلس الأمن لبس وليد رغبة في الحصول على شرعية يمنحها القانون الدولي - وهو أمر كان يعد غير مجد منذ وقت طويل. كان يراد في الأكثر تغطية حماية الخطوط الخلفية عن طريق توسيع قاعدة تحالف البلدان المناصرة للحرب وتبديل الشكوك لدى المواطنين.

ولأجل هذا لا يجب فهم هذه العقيدة الجديدة بوصفها تعبيراً عن النزعة الكلبية المعيارية. قد نفضّل إمكانية اللجوء إلى نقد الإيديولوجيا لكننا لن نتوصّل إلا إلى تفسيرات اصطلاحية لن تعطي سوى طابع مبتذل إلى القطيعة التي تباشر الولايات المتحدة تكريسها، بالنسبة إلى المعايير التي أقرّت بها إلى حدّ الآن. لذلك يكون من الأفضل عدم الوقوف عند الدوافع وتناول العقيدة الجديدة كما هي. وإلاّ فإننا سنتجاهل الطابع الثوروي لهذا التغيير في التوجّه وهو تغيير يتغذى من التجارب التاريخية في القرن السابق.

قال المؤرخ إريك هوبسبوم Eric Hobsbawm عن القرن العشرين بأنه "أمريكي". فمن الجائز للمحافظين الجدد أن

يعدّوا أنفسهم "**منتصرين**" وأن يتخذوا من الانتصارات الواضحة مثالاً لنظام عالمي جديد قائم وهي انتصارات حققتها الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية - في أوروبا وفي جنوب شرق آسيا بعد هزيمة ألمانيا واليابان، وفي أوروبا الشرقية بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. إن ميزة هذا التاريخ البعدي على طريقة فوكوياما، إذْ يؤول من زاوية نظر الليبرالية، تتمثل في التقشف في مناقشة دقيقة حول الأهداف المعيارية: فما الذي قد يمكن أن يحدث للناس أفضل من تنامي السوق الحرة وتزايد عدد الدول الليبرالية على الصعيد العالمي؟

طريق الوصول واضح أيضاً: تم إخضاع اليابان وروسيا بفضل الحرب والسلاح الرادع. إن اللجوء إلى القوة العسكرية يعد اليوم من أمثل الأشياء فالمنتصر في الحروب اللامتماثلة لا يداخله أي شك بصورة قبلية. والحروب التي تحسّن وضع العالم لا تحتاج إلى أي تسويغ إضافي. في - مقابل بعض الخسائر الجانبية التي لا أهمية لها - تزيح شراً واضحاً من الممكن أن يستمر في ظل مجموعة دولية عاجزة. إن طرح صدام إلى أسفل قاعدة تمثاله، هو الحجة الكافية لتسويغ كل شيء.

تم التفكير في هذه العقيدة قبل الهجوم الإرهابي على برجي نيويورك بكثير. وكل ما صنعته صدمة الحادي عشر من أيلول 2001 هو خلق مناخ أمكن للعقيدة أن تجد فيه

صدى واسعاً - عن طريق تحويلها بمهارة إلى **"حرب ضد** الإرهاب". إن هذه العملية هي التي صنعت اليوم عقيدة بوش. لكنها تمثّلت في تحديد ظاهرة من نوع جديد في الأصل بالنسبة إلى المفاهيم المألوفة للحرب الاصطلاحية. في حالة نظام طالبان، كانت توجد بالفعل علاقة سببية بين الإرهاب الذي يتعذر السيطرة عليه و**"دولة مارقة"** يمكن مهاجمتها. كان هذا النموذج يشير إلى حقيقة أن العمل الكلاسيكي مثلما هو الشأن في حرب بين دول يمكن أن يحرم ذلك الخطر المتستّر من دعم أساسي، وهو خطر ينتمي مع ذلك إلى شبكات منتشرة ومعولمة.

بخلاف ما حدث مع الصيغة الأولى لتلك العقيدة عندما أصبحت النزعة الأحادية المهيمنة مرتبطة بضرورة الاحتماء من خطر مقنّع، أمكن للعقيدة الجديدة أن تولي الأهمية الأساسية لحجة الدفاع عن النفس. ومع ذلك وجدت هذه العقيدة نفسها أمام ضرورة جديدة: هي البراهنة على العلاقة. كان على الإدارة الأمريكية محاولة إقناع الرأي العام العالمي بالصلات القائمة بين صدام حسين والقاعدة. بينما لم تقدم عقيدة بوش - لتبرير تعبئة وسائل عسكرية باسم الوقاية - أي تفسير مقبول. وبقدر ما يتجاوز العنف الإرهابي - أي **"هذه الحرب في زمن السلم"** - أصناف الحرب بين الدول، فإنه لا يبرّر مطلقاً تلطيف الدفاع المشروع للدول المنظم بدقة بواسطة القانون الدولي، لإجازة القيام بحرب والحديث قبل الأوان عن الدفاع عن النفس.

ولمواجهة أعداء يتحركون على الصعيد العالمي عبر شبكات غير مرئية، تتمثل وسيلة النجاة الوحيدة في الاستباق المتّبع على أصعدة أخرى إجرائية. وفي هذا الميدان، لا تقدّم القنابل والصواريخ والطائرات والمصفّحات أيّة مساعدة؛ ولا يمكن لهذه الأخيرة أن تأتي إلا عن طريق إقامة شبكة موازية لمصالح الإعلام وللإدارات الجزائية ولمراقبة التدفقات المالية وموازية بصفة عامة لمراقبة العلاقات اللوجيستية. إن "البرامج الأمنية" من هذا النوع لا تتعلق بالقانون الدولي، في تهم القوانين المدنية والسياسية التي تتكفل الدول بضمانها.

عندما تركّز عقيدة بوش على الإرهاب فهي لا تُضفي على هدفه العالمي للهيمنة المزيد من المشروعية. ويظل تمثال صدام حسين المُطاح به إلى أسفل قاعدته الحجة الحيدة ورمز النظام الليبرالي الجديد في المنطقة كلها. إن حرب العراق حلقة في سلسلة إرساء سياسة عالمية، ومبررها الوحيد هو إنها تحلّ في محل سياسة لحقوق الإنسان لم تؤت ثمارها لأن التنظيم المتكفّل بها قد انكشفت رثاثته. فالولايات المتحدة تلعب إذن دور الحاكم القضائي وتؤدي بصفتها تلك الدور التي تجزب عن القيام به منظمة الأمم المتحدة. وما الذي يمنع ذلك؟

من الممكن أن تخدعنا العواطف، لأنها تستجيب لمشاهد أو صور معينة. ولا وجود لوسيلة تتيح الإحاطة بمسألة التسويغ في مجملها. وتبقى هناك مسألة تختلف حولها الآراء بشكل

حاسم: وهي مسألة أن نعرف هي من الممكن ومن المقبول أن يحلّ في محلّ سياق تعلّق فيه التسويغ بالقانون الدولي سياق سياسة عالمية أحادية الجانب تتبّعها قوة مهيمنة - "زعيم مهيمن" - جنّدت نفسها بنفسها.

الاعتراضات التجريبية التي تواجهها الرؤية الأمريكية تتعلق بقابلية تحقيقها: فقد أصبح المجتمع العالمي على درجة كبيرة من التعقيد بحيث لم تعد قيادته ممكنة، من مركز معيّن وبواسطة سياسة ترتكز على القوة العسكرية. إن ما تم تجاوزه بصورة حتمية في مواجهة الشبكات الأفقية للسوق والتواصل الثقافي والاجتماعي، هو تلك السياسة التي تعود إلى الشكل الذي قدّمه هوبز والناتج في الأصل عن منظومة أمنية خاضعة لتراتبية معينة فالدولة التي ترجع كل الخيارات إلى خيار أحمق مثل خيار الحرب أو السلم، قد عجّلت بالاصطدام بحدود مواردها الخاصة وقدراتها على التنظيم. كما أنها تجعل التفاهم مع القوى المتنافسة تمر عبر القنوات السيئة وتدفع تكاليف التنسيق نحو درجات عليا مدوّخة.

لكن حتى وإن كانت النزعة الأحادية للهيمنة قابلة للاستمرار فإنها ستؤدي لا محالة إلى نتائج ثانوية، لا يمكن وفق مقاييسها الخاصة، تمنّيها بصورة معيارية. فكلما سعت قوة سياسية إلى فرض نزعتها الأحادية في ميادين مثل ميدان القوة العسكرية والاستخبارات والشرطة، كلما عرضت رسالتها للخطر - أي رسالة تحسين وضع العالم باسم الأفكار الليبرالية.

في الولايات المتحدة نفسها، عندما ضمن نظام "زعامة الحرب" presidence de guerre بقاءه عبر الزمن، فإنه أصبح يعد لتقويض أسس دولة القانون. ودون الحديث عن الطرائق - ومن ضمنها التعذيب - المستعملة أو المسموح بها خارج الحدود الأمريكية، فإن سجناء غوانتنامو - وباسم نظام الحرب - محرومون من الحقوق التي أقرتها اتفاقية جينيف، كما أن المصالح الأمنية - وباسم نظام الحرب كذلك - تتمته بحرية تحدّ من الحقوق الدستورية للمواطنين الأمريكيين.

وإذا تم استباق الإمكانية غير المتوقعّة على الإطلاق، والتي قد يستخدم وفقها مواطنو سوريا والأردن والكويت، إلخ، حرياتهم الديمقراطية الجديدة استخداماً "عدائياً"، أين تسعى عقيدة بوش إلى المطالبة بإجراءات تحول دون نتائج المثمرة؟ سنة 1991 حرّر الأمريكان الكويت على أي حال لكنهم لم يكرسوا داخلها الديمقراطية. ويبقى أن دور الحاكم القضائي الموافق للمقاس بالنسبة للولايات المتحدة والذي منحته هي لنفسها، يصطدم خصوصاً بالمعارضة التي عبّرت عنها بعض البلدان الحليفة - وهي بلدان تملك كل الأسباب المعيارية الكامنة وراء عدم اقتناعها بالنزعة الأحادية في السعي الأمريكي إلى الزعامة.

في الماضي رأينا النزعة القومية الليبرالية تجيز لنفسها في العالم بأسره وبواسطة السلاح عند الحاجة، نشر القيم الكونية لنظامها الليبرالي. ليس الانتقال من الدولة - الأمة إلى

القوة المهيمنة هو الذي يجعل سلوك من ينصّب نفسه قاضياً أكثر قابلية للتحمل.

إن النزعة الكونية التي تكمن في صميم الديمقراطية وحقوق الإنسان هي بالذات ما يمنع فرضها من جانب واحد. ولا يجب بأي حال من الأحوال خلط ضرورة الصحة validite على الصعيد الكوني، التي يربطها الغرب بـ "قيمة السياسة الأساسية" بالطموح الإمبريالي إلى جعل ثقافة معينة وشكل معين للحياة السياسية - وإن كانا ينتميان لأعرق ديمقراطية في العالم - نموذجين بالنسبة إلى كل المجتمعات.

إنما لمثل هذه "النزعة الكونية" كانت تدعو امبراطوريات العصور القديمة؛ فهي لم تكن تدرك العالم خارج حدودها إلا من وجهة النظر المركزية التي تمنحها صورتها الخاصة عن العالم. أما فهم الذات الحديث فهو يتميز - على العكس - بطابع النزعة الكونية القائمة على أساس المساواة التي لا تستلزم الانزياح عن التصور الخاص فحسب بل تفرض كذلك تجرد النظرة الذاتية من الصفات الخاصة للتوصل إلى إقامة علاقة بين هذه النظرة وتصورات التأويل المعتمدة من قبل الآخر باعتباره ندّاً.

الذرائعية الأمريكية هي على وجه الدقة التيار الفلسفي الذي طرح الفكرة القائلة بأن ما كان جيّداً أو صحيحاً بالنسبة إلى مل الأطراف توقّف على علاقة التبادل التي استطاع كل طرف وفقها اعتماد تصوّر الأطراف الأخرى. إن

مبرّر الحف العقلاني الحديث لا يتأكد في "القيم" الكونية التي من الممكن امتلاكها على غرار أية ثروة وتوزيعها عبر العالم أو تصديرها. وليس "القيم" - ومن ضمنها تلك التي يمكن أن تعتمد على القبول الشامل - معلّقة في الهواء؛ وإذا اكتسبت قوة الإلزام فإن ذلك يتم داخل أنظمة وممارسات معيارية تندرج في إطار أشكال ثقافية معينة للحياة.

وعندما يتظاهر في الناصرية آلاف الأشخاص من الشيعة ضد صدام وضد الاحتلال الأمريكي فإنهم يقولون كذلك إن الحضارات اللاغربية ينبغي لها أن تمتلك المضمون الكونيّ النزعة لحقوق الإنسان انطلاقاً من مواردها الخاصة. ولهذه الأسباب كلها، فإن تشكل الإرادة لدى أطراف متعددة، حتى في إطار العلاقات بين الدول، ليس خياراً فحسب من بين خيارات أخرى. داخل عزلته التي فرضها على نفسه، من المحتمل جداً أن الزعيم المهيمن الجيّد - هو بشخصه - وهو الذي يمنح نفسه دور الحاكم القضائي لمصالح الجميع، لا يعرف إن كان ما يعتبره في مصلحة الآخرين هو حَسَنٌ للجميع كذلك.

وإذا أردنا متابعة التطور الموسموبوليطيقي المتعلق بقانون دولي يسعى إلى إسماع أصوات كل الأشخاص المعنيين في كنف المساواة وعلاقة التبادل فإنه قلّما يوجد حلّ آخر معقول.

لم تلحق منظمة الأمم المتحدة حتى الآن أضرار كبرى. بل إنها عندما تصرفت بطريقة تجبر أعضاء مجلس الأمن "الصغار" على الاستسلام تحت ضغوط "الكبار"، قد حازت

المزيد من الثقة والتأثير. وإذا فُرض على سمعتها أن تُصاب بأضرار فإن هذه الأخيرة لن تتأتى سوى من أخطائها هي - إذا توصّلت بخاصة إلى محاولة "مداواة" ما لا يوجد مجال لمداواته عن طريق الوفاق.

نُشر بجريدة لوموند، السبت 3 ماي 2003

معجم الألفاظ وفق الأبجدية الفرنسية

Administrateur	حاكم قضائي
Cosmoplitique	كوسموبوليطيقي
Cosmopolitisme	كوسموبوليتية
Cynisme	نزعة كلبيّة
Doctrine	عقيدة
Hegemon	زعيم مهيمن
hegemonie	هيمنة
Justicier	قاضٍ
Justification	تسويغ
multilateral	متعدد الأطراف
Ordre	نظام
Revolutionnaire	ثوروي
Sentiments (moroux)	مشاعر، عواطف
Systeme	نسق، منظومة
unilateralisme	أحادية الهيمنة
Univer alisme	نزعة كونية
validite	صحة (عكس بطلان)

يورغن هابرماس

فيلسوف وناقد اجتماع، ولد في غوميرسباخ وهي مدينة تقع بالقرب من كولونيا في العام 1929. كان مساعداً لتيودور أدرنو، وهو وريث لمدرسة فرنكفورت وللنظرية النقدية (النظرية والممارسة، 1963)* فهو يوحّد بين إضافات الفلسفة وإضافات العلوم الاجتماعية. وقد أسس نظرية نقدية للوضعية والتقنية (التقنية والعلم كإيديولوجيا، 1968) متسائلاً حول إمكانية المزاوجة بين المجتمعات الصناعية المتقدمة والديمقراطية. فكتابه (الميدان العام، 1962) مساهمة في دراسة نشأة المجتمع البورجوازي منذ بداية القرن الثامن عشر. كما سعى إلى نقد الماركسية (بعد ماركس، 1975). ومع ذلك ليست إعادة نظره في العقل

* كل ما ورد بين قوسين يشير إلى عناوين كتب لهابرماس.
ونذكر من بين أعماله المنقولة إلى العربية:
- المعرفة والمنفعة، ت: حسن صقر، مراجعة ابراهيم الحيدري، دار الجمل، ألمانيا، 2001.
- بعد ماركس، ت: محمد ميلاد، دار الحوار، سوريا، 2002.

التقني raison technicienne - خلافاً لهيدغر مثلاً - نقداً شاملاً للحداثة (الخطاب الفلسفي للحداثة، 1988). ويضم كتابه الضخم (نظرية الفعل التواصلي، 1983) قسمين، يتناول في القسم الأول عقلنة الفعل والمجتمع، وينقد في القسم الثاني العقل الوظيفي. وهو يتقصى قضايا فلسفية تتعلق بالمطابقة مع الصدق le vrai ومع الخير le bien. وتُعدّ مسألة الصواب le juste أي صحة validite قاعدة السلوك في الواجهة أكثر من مسألة الحياة المطابقة للخير (إتيكا المناقشة، 1990).

الفصل الخامس

ريجيس دوبريه

تلأملات في الشأن الديني

*أجرى الحوار بيير مارك دي بيازي***

ريجيس ديبريه على جميع الجبهات في وقت واحد: فهو يصدر الكتب بشكل متوال ويكثر من عدد الأفلام والبرامج الإذاعية والمداخلات في الصحافة، ويعنّف كبار الشخصيات في العالم، ويخلق حركة فكرية (الميديولوجيا: وهي تبحث في التفاعلات بين الثقافة والتقنية) ويؤسس مجلة هي (كراسات الميديولوجيا وقد صدرت في البداية عن غاليمار وتصدر الآن عن فايار)، وينظم الندوات ويدير نادياً للحوار (الدار الأوروبية للتصوير الفوتوغرافي)، وسلسلة من الأعمال (من إصدارات أوديل جاكوب، فايار).

لكن بقي مجال لم يدس فيه ريجيس ديبريه أنفه: إنه مجال الشأن الديني وأمور الروح. كنا نعتقد أنه ملحد هادئ عقلاني

** العنوان الأصلي هو Penser lereligieux وقد نشر هذا الحوار في مجلة Magazine litterair العدد 421، يونيو - حزيران 2003.

وغير مؤذ، وبعيد كل البعد عن الغيبيات المتسامية. وها هو بعد ثلاث سنوات يجعل من الشأن الديني بالذات موضع اهتمامه. فقد أصدر في البداية كتاباً مثيراً عن التوحيد monotheisme باعتباره اختراعاً جاء كامتداد طبيعي لاختراع الأبجدية والعجلة roué. عنوان كتاب: "الله، مسار رحلة" Dieu. Un itineraire (الناشر أوديل جاكوب، 2001)، تلاه تقرير وزاري رسمي جداً حول "تدريس الشأن الديني في المدرسة العلمانية" (التربية القومية، 2002)، ثم يُصدر مؤخراً - كحصيلة لكل ما قاله في هذا الموضوع - كتابه "النار المقدسة". وهو تحليل عميق واستجلائي لـ "فاعلية الشأن الديني". التي تثير كما نعلم الكثير من الجدل وعلامات الاستفهام.

ماذا يعني بالنسبة إلى كاتب فيلسوف الاستغراق إلى هذا الحد في الشأن الديني: إنه السؤال الذي أردنا طرحه على هذا المفكر الذي يربك الأذهان. لكنه يظل بلا شك واحداً من القلائل الذين ما زالوا يأخذون بجدية مقولة جوته: "إن أسمى فعالية يملكها الذهن هي إيقاظ الذهن".

- النار المقدسة" هو آخر كتاب حول الشأن الديني، وفي الحصيلة، يبلغ ما خصصته لهذه المسألة منذ صدور كتابك "الله مسار رحلة" ألف صفحة تقريباً، فما المنزلة التي تعطيها للشأن الديني في بحوثك؟ وما الذي قادك نحو الاهتمام بالروحانيات؟

- ليس الشأن الديني بالنسبة لي ظاهرة سابقة. بل هو شيء لاحق: لقد توصلت إلى مسألة الدين عن طريق التساؤل حول السلوكيات الفعلية أو البراكسيس praxis، أي عبر فلسفة خاصة بالممارسة. فقد طالعت في السبعينات كتاباً أعجبت به أيما إعجاب عنوانه: ما الذي يحرض المناضلين في مسعاهم؟Qu est – ce qui fait courir les militants? وهو كتابٌ من تأليف طبيب نفساني يتساءل عن العوامل الدفينة في مخيلة الفرد التي تحرك فيه الروح النضالية. ما يشغلني إذن هي أسئلة من نوع: ما الذي يجعل المرء يقرر المخاطرة بحياته؟ ما الذي يجعل الفكرة، وإن كانت خاطئة تغير عالم الواقع؟ بماذا نفسر انخراط الأفراد في تشكيل عصابات وجماعات وأحزاب وأمم وكنائس؟ ما الخطوات التي تؤدي بالناس تدريجياً إلى التجمع، وما الذي يدفعهم نحو "الفعل" فنقطة الانطلاق بالنسبة لي ليست الابستمولوجيا (نظرية المعرفة) على الإطلاق، لأن مشكلة الفلاسفة تكمن في عدم تجاوزهم للمنطق الثنائي: خطأ / صواب، لذلك - حين يتعلق الأمر بتطبيق نظرية المعرفة - فإن الشأن الديني يكون في جهة الخطأ: بلا أدنى شك، فالصواب لا يوجد إلا في الحقائق. وتفسير ذلك ببساطة هو أن الشأن الديني لا يشغل الفلاسفة، لكننا إذا تفحصنا الأمر عن قرب يتبين لنا أن كل شيء يدعو للاعتقاد بأن "الصواب" - بمفهوم "الحقائق" - عديم الفاعلية، وأن الخطأ" ذو فاعلية فائقة، ونعني هنا شكلاً معيناً من أشكال "الخطأ": الأسطوري،

والخيالي/ والعجيب والخرافي، وهي كلها أنماط من الفكر غير قابلة للإثبات، وقد تصنفها الابستمولوجيا ضمن "الضبابي" و"عديم المردود" و"العقيم" و"غير المثمر". لكن الواقع يثبت لنا العكس تماماً. فالحقائق كثيراً ما يستقبلها الناس بشيء من اللامبالاة، وكونها حقيقة لا يمنحها أي قوة لتفرض نفسها وتلقى القبول. وفي أحسن الحالات يتكون لدى الناس تجاهها نوع من الإجماع الرخو. ثم ينتهي كل شيء عند هذا الحد، بينما الفاعلية الحقيقية، تلك التي تغير الأشياء، أي القوة المؤثرة بالفعل هي الموجودة في جهة الإيمان croyance. وسواء كانت عادلة أو غير عادلة. صحيحة أو خاطئة، فتلك مسألة أخرى. الإيمان لا يحتاج إلى أدلة. فهو غير قابل للإثبات أو للاحتمال، إنه حاسم. وهو يبرهن على الحركة بالزحف إلى الأمام. ما يهمني هو تلك الوظيفة المحركة الكامنة في الإيمان وقدرته على سن القوانين المصيرية للعالم. وقد انتهيت إلى فكرة "الدافع" عن طريق تلك القدرة على التحرك، أريد أن أفهم ما الذي يطلق نزعة الحركة لدى الناس، ما الذي يثير الفعل لديهم: ما هو ذلك "الأسطو - محرك" (المحرك غير العقلاني) Mythomoteur. وهذه، كما ترى، صورة أخرى للتفلسف عن طريق المزاوجة بين الفلسفة والأنثربولوجيا (علم الإنسان).

- هل اكتسبت صفة القناص هذه franc – tireur التي تضعك في مكانة متميزة في عالم الفلسفة - من تجربة الممارسة الفعلية في عالم السياسة أو الباركسيس السياسي؟

- ربما، فقد عشت لفترة مع مناضلين ورجال مقاومة. ما الذي كان يدفعهم إلى النضال والتضحية؟ يدفعهم إلى ذلك أمر لا يمت إلى العلم بصلة، وإن كان يتخفى أحياناً وراء بهرج علمي معين، فهو، حسب الحالة، يسمى إما الثورة أو البروليتاريا أو الشعب المنتخب، أو فكرة الله: أي إن هناك دائماً في نهاية المطاف إلهاماً دينياً. وفي رأيي أن ماركس لم يستفد من الشأن الديني ومن الإيمان بالمسيح، والطاقة الثورية الحقيقية، لأنه لم يطرح مسألة الممارسة طرحاً صحيحاً، أي مسألة التعرف إلى ما يجعل الفكر يتحول إلى قوة مادية.

- لكن لينين طرح هذه المسألة...

- نعم، طرحها لينين بالتأكيد، وستالين كذلك، لأنهما كانا رجلي فعل. بالنسبة لي فإن الفعل والتفكير في الفعل هما اللذان دفعاني إلى حقيقة أن الشأن الديني مشبع بالفيتامين لا بالأفيون. فليس الدين أفيون الشعوب. بل هو فيتامين الضعيف. وهو ليس مادة منومة، بل هو عنصر ينبه ويثير الحماس. ولا يستطيع الفلاسفة أن يتخيلوا ذلك لأنهم محبوسون في إطار جامعي تنظيري بحت. أما أن يكون للمرء كل هذا الرصيد من سنوات النضال، وأن يجد نفسه مجبراً على أن يسأل عن مبرر وجوده بين أربعة جدران، وهو يحمل على أكتافه حكماً بالإعدام، فكل هذا أشياء تضطره إلى أن يطرح على نفسه أسئلة عملية، وأن يواجه الأشياء بلا مواربة، ويؤدي بنا ذلك إلى الاعتراف بأن وجود المرء في ذلك المكان له أسباب أيديولوجية

بالمعنى القوي للكلمة، أي أسباب ميثولوجية (قائمة على معتقدات خرافية). لكننا عندما نغوص حتى العنق في الميثو - لوجي mytho – logique، لا نكون بعيدين جداً عن الثيو - لوجي theo logique - (علم اللاهوت).

- لكن الفلسفة طرحت على نفسها هذا السؤال بصورة جدية، في إطار المذهب النقدي الكانطي مثلاً.

- نعم، هناك كانط.. لكن يوجد أيضاً من هو أقرب إلينا، أعني سارتر، غير أن وجه الاختلاف بيني وبين عصر التنوير، هو الفردية على وجه الخصوص: فالتنوير ينشئ فلسفة الوعي بالفرد والذات، أما ما يبهرني على العكس، فهو ما يقرّب بين وعي الأفراد. وما يصنع "المشترك" و"الجماعي"، متجاوزاً القيم الذاتية والفردية بل وعلى حسابها أحياناً. وربما نجد أنفسنا هنا في منطقة قريبة من دوركهايم الذي يرى أن التجمع في حد ذاته "شأن ديني" أو "لا شيء". وسواء تعلق الأمر بتمجيد الميت، أو الجدود، أو تاريخ حدث خرافي أو حدث تأسيسي أو بإحياء ذكرى.. فإن كل هذه المعتقدات ترتكز على أفكار في غاية الجنون، لكنها متماسكة، فهي تحرك الجماهير وتعدل اتجاه التاريخ.

- في الوقت نفسه، فإن هذا البحث حول ما يقرّب الصلة وما يجمع، إنما يقود إلى علم الاجتماع، مع أنك بعيد جداً عن ذلك.

- نعم، ربما لأن علماء الاجتماع لا يرجعون إلى الأسباب. فهم يصفون النتائج ويهتمون بواقع الأشياء دون أن ينشغلوا

بمصدرها. إنهم لا يميلون إلى علم التاريخ، أما أنا، فإني أسعى إلى تنظيم وتحديد عوامل القوة التي تخترق عصور التاريخ بانتظام، وأحياناً باستمرارية تجعل المرء يقر - إلى حد ما على الأقل - بأن شيئاً ما في تلك العوامل يتبلور ليتحول إلى ثوابت.

- في الواقع، البعض يتساءل بشيء من القلق: هل أصبح ريجيس ديبريه عالماً روحانياً؟ وهل تؤمن الآن بالغيبيات المتسامية transcendance؟

- كلا، الروحانيات لا تهمني إطلاقاً، بل تهمني البراغماتية، لذلك أميز بين الروحاني والشأن الديني. بصراحة، أنا لا أعرف الروحاني، ولم تكن لي أية تجربة روحانية، ربما يكون الأمر محزناً بعض الشيء. لكنه حقيقة. بالطبع هناك حتمية الموت بالنسبة للجميع، وأنا أعتقد أن الشأن الديني مرتبط أشد الارتباط برفض فكرة الموت، الأمر هنا يتعلق بحياة إضافية supplement de vie. فأي كائن حي لديه ولو شرارة من الذكاء يدرك أن وجوده زائل. ولا يمكنه إلا أن يتجه إلى الشأن الديني والميثولوجيات طالباً منها إضافة - لا إضافة روحية - بل إضافة جسدية.

- كتب فلوبير في كراساته التي تعود إلى فترة شبابه، وبعد موت صديق له: "إن فكرة خلود الروح قد تولدت من مشاعر الحسرة على الموتى".

- هذه صياغة جميلة، وهي صحيحة بالتأكيد، وينتابني دائماً شعور بالدهشة عندما أتبين إلى أي مدى يدرك الكتّاب مثل هذه

الحقائق بصورة أسرع وأعمق، مما يفعله الفلاسفة. إنهم أكثر التصاقاً من الفلاسفة بالعالم الإنساني المحسوس.

- هذا الاهتمام بالشأن الديني في أعمالك ليس جديداً، وقد كان دائم الحضور في أبحاثك الأولى في مجلة "الميديولوجيا" حيث شكل التفكير في أمر رهبان الكنيسة لحظة هامة من مجموع البراهين.

- نعم هذا صحيح. لأنني وجدت دائماً أن رجال الكنيسة أقرب إلى البراكسيس (الممارسة الواقعية) مقارنة برجال العلم. والسبب هو أن مشكلتهم لا تتمثل في معرفة الصواب والخطأ - فهذه المشكلة تتولى حلها العقيدة - بل في تسيير أمور الناس. ثم إن اتساع المدى الزمني بالنسبة للشأن الديني يتيح اتباع منهج معين dispositive بكل مراحله أياً كان طولها، أي على مدى قرون وآلاف السنين، بخلاف المجال السياسي أو الاقتصادي الذي يمكن اعتباره شأناً دينياً زائلاً religieux éphémere محكوماً بظاهرة إعادة التشكل المستمرة لأنه قائم على معتقدات قصيرة الأجل. فالشأن الديني هو إذن شأن سياسي جاد وشان اقتصادي ذو مردود، لأنه يتصف بالديمومة.

- تصاحب أعمالك الكثير من الرسوم، فالتمثيل البصري داخلها مسألة ثابتة. والشأن الديني يهمك أيضاً منذ فترة طويلة نظراً إلى قدرته على إنتاج الصورة واستخدامها.

- بالفعل هذه نقطة أخرى مهمة: ذلك أننا نجد في البنى الثيولوجية (اللاهوتية) الكثير من الواقعية، وهي واقعية تعبر عن

نفسها بأسلوب "فوق طبيعي". لكنها تستخدم الرمز استخداماً جيداً. ففكرة التجسيد وفكرة الصورة بوصفها وسيلة لمعرفة العالم الآخر، كل ذلك في رأيي يشكل أدوات هامة جداً لتفسير الواقع في عالمنا. كما أن الصورة بوصفها وسيطاً media إنما هي مسألة دينية في الأصل كانت محل جدل في المجمع الديني. بينما الصور التي تحتل كل هذه المكانة في كوكبنا - (الكوكب - الشاشة vidéosphére). أي هذا الافتتان بالصورة حتى العبادة. وهي سمة يختص بها عالمنا المعاصر، لا تعدو أن يكون نوعاً من إعادة التدوير أو تدهور التاريخ الإنساني (الأنطولوجي). هذا التكرار اللانهائي يكاد يقضي على قوة التأثير المطلقة والوظيفة التواصلية اللتين منحتهما الكنيسة ل"الصورة". لكن ليس هذا سوى مثال من بين أمثلة أخرى عديدة. إنني مقتنع بأن المقدس هو أفضل طريق لفهم الدنيوي، فالشأن الديني لا يهم المؤمنين وحدهم، بل يمكننا القول إن أهل الإيمان هم أقل الناس استفادة منه، لأنهم قد تزودوا بالفعل بما يحتاجونه. وبالمقابل، فإن أمام غير المؤمنين الكثير الذي ينتظرونه والذي يمكن أن يتعلموه منه عن عالم الواقع. الشأن الديني في الحقيقة يهمنا جميعاً مؤمنين وغير مؤمنين، لأننا في نهاية الأمر، أمام صورة مقنعة من علم الإنسان (الأنثروبولوجيا).

- قد يساعدنا الشأن الديني - من خلال الأساطير - على فهم ذلك التضامن الجماعي Fidueiaires الذي ينسج - رغماً عنا - خيوطاً وهمية، هي التي تربطنا بالعالم والآخرين، فالعملة الورقية على سبيل المثال تنتمي إلى تلك القوة الغامضة للأسطورة، الوهم، المعتقد.

- نعم، ذكرت منذ قليل فلوبير. لكن هناك كاتب آخر فهم كما ينبغي هذه المسألة، إنه بول فاليري، فقد كتب بخصوص مسألة "التضامن" أروع الصفحات، إذ بيّن أن كل مجموعة إنسانية تعيش بـ "التضامن" فيما بينها، حول عدد معين من المسلمات والمعتقدات القائمة بدورها على الولاء التلقائي من قبل الجميع. وفي اللحظة التي يكف فيها معظم الناس عن الإيمان بأن الورقة النقدية تعادل القيمة التي تعلن عنها، تكون نهاية النظام النقدي الذي تمثله تلك الورقة. فالإيمان هو أساس كل قوة، لكنه يعني في الوقت نفسه هشاشة كل نسق. وعلى كل فإن جذور ظاهرة التضامن تمتد ضاربة في الشأن الديني. لنأخذ الورقة الخضراء مثلاً: فهي تجمع بين الإيمان بجهاز مالي رسمي هو الاحتياطي الفيدرالي la federal reserver والإيمان المعلن بالأمة المنتخبة "الولايات المتحدة الأمريكية". ثم، في أحسن موقع وبالتحديد أعلى الرقم الذي يبين القيمة المثبتة على وجه الورقة الإيمان بالله God we trust in. هذه الثقة confiance هي - في عمقها - شأن ديني، والقوة كل القوة تكمن هنا، في صيغة "كأنه...". وبطبيعة الحال، هذه ال"كأنه..." ليست معزولة، فهي تركز على عدد لا يحصى من مثيلاتها يعاضد بعضها بعضاً. فالإيمان - بطبيعته - يقوم على عوامل متعددة. ومثله مثل توازن القصر المشاد بالورق لا يتحقق توازنه إلا بفضل تراكم الأساطير المتعاضدة. وهكذا فإن الثقة في نظام نقدي معين ترتكز هي نفسها على

أشكال أخرى من الائتمان إلى حد ما - افتراضية. مثل مستوى الأداء التكنولوجي، الإنتاجية الصناعية، والقوة العسكرية، إلخ. لكن تلك الأشكال يمكن أن تتمخض - في الوقت المناسب - عن إجراءات انتقامية mesures de rétorsion حقيقية ضد كل من يشكك في المعتقد أو يهدده.

- كلمة أخيرة بخصوص "النار المقدسة". هذا الكتاب الذي جمعت فيه مجمل أفكارك في الشأن الديني. هل يمثل مرحلة سوف تليها مراحل أخرى؟ أم أنه عمل حصري ينتهي عند هذا الحد؟

- بالنسبة لي، تجد مجموعة أعمالي حول الشأن الديني نهايتها عند هذا الحد. "النار المقدسة" هو كتاب حصري. وهو خلاصة ما أردت قوله: وهذا ما يفسر طابعه الموسوعي، وغزارة المعلومات الواردة فيه. إنه نقطة النهاية. لقد سبق أن أثرت منذ عشرين سنة أطروحات للبحث. وقدمت حول الشأن الديني تحليلي الخاص. ولن أذهب إلى أبعد من ذلك. إنها مساهمة. لكنني على يقين من أن ثقافاتنا الغربية في حاجة ملحة إلى التخلص من هذا التمركز حول الذات nombrilisme والمتمثل في القول إن الشأن الديني ينتمي إلى الماضي. لقد أعيد توظيف الشأن الديني في كل أنواع الديانات المدنية séculiéres وحالما تنهار هذه الديانات "الأفقية". سوف نشهد الصعود الجنوني للدين بشكله العتيق، أي الدين "ذو العلامة المسجلة". Labellise، غير أننا حتى مع وجود هذه الظاهرة فمن غير المؤكد أنها ستكون عودة حقيقية إلى الماضي. فثمة أسلوب

للانتماء إلى الدين قد انتهى، وهو الأسلوب المؤسسي، العقائدي، المذهبي، الكنسي. بالمقابل نشهد عودة ظهور الطوائف، فهي تملك جميعها جوهراً دينياً عميقاً. لم يكن إحياء الدين أو تجديده لدى الطائفة اليهودية أمراً وارداً منذ أربعين سنة، ولو أن أحداً أخبر ريمون آرون بذلك لما صدقه. كان المرء يهودياً بالثقافة. وهو الآن يصبح يهودياً بالديانة. أما مسألة الطوائف المسلمة فهي تُطرح بشكل مغاير تماماً لكنها ليست أقل جدية. كما أن العالم المسيحي وعلى طريقته - يمر بظواهر مماثلة تماماً. نعم ثمة ضرورة عاجلة لفهم الشأن الديني.

ريجيس دوبريه

كاتب سياسي فرنسي ولد بباريس في العام 1940، ألّف كتاباً عن المقاومة الثورية (الثورة في الثورة، 1967)، رافق تشي غيفارا وشارك في حرب العصابات في أمريكا اللاتينية وأُلقي القبض عليه في بولوفيا. حُكم عليه بالسجن لمدة ثلاثين عاماً وتم الإفراج عنه في شهر ديسمبر 1970. كُلّف بمهمة لدى رئيس الجمهورية (بين سنتي 1981 و 1985 وسنتي 1987 و1988).

له مؤلفات عديدة نذكر منها:

- السلطة الفكرية في فرنسا، 1979.
- تحيا الجمهورية، 1989.
- إلى الغد ديغول، 1990.
- دولة الغواية، 1993.
- محاضرة في الميديولوجيا العامة (علم وسائل الاتصال)، 1991.

كما نُقلت بعض كتبه إلى العربية وصدرت جميعها عن دار الآداب ببيروت - لبنان، وهي:

- ثورة في الثورة، ت: الياس سحّاب.

- دفاعاً عن الثورية، ت: نزيه الحكيم.

- مذكرات بورجوازي صغير بين نارين وأربعة جدران، ت: د. سهيل إدريس.

- الثلج يشتعل (رواية)، ت: سهيل إدريس.

- نقد العقل السياسي، ت: د. عفيف دمشقية.

الفصل السادس

جان بودريار

عنف العولمة

هل يمكن القول بحتمية العولمة؟

لقد أفلتت كل الثقافات - باستثناء ثقافتنا - بشكل من الأشكال من حتمية التبادل اللامبالي. فأين تقع العتبة النقدية من أجل المرور إلى الشامل ومن ثم إلى العالمي؟ ما هذا الدوار الذي يدفع العالم نحو تجريدية الفكرة؟ وما ذلك الدوار الذي يدفع نحو تحقيق الفكرة اللامشروط؟

بما أن الشامل فكرة، فإنها - عندما تتحقق في العالمي - تنتحر بوصفها فكرة، وبوصفها غاية مثلى. ونظراً إلى أن الإنساني قد أصبح السلطة المرجعية الوحيدة، وإلى أن الإنسانية الملازمة لشرط وجودها نفسه قد احتلت الفراغ الذي تركه الإله الميت، فإن الإنسان يبسط من الآن فصاعداً هيمنته. غير أنه قد فقد كل سبب غائي. لذلك ما إن وجد نفسه بلا أعداء حتّى خلقهم من الداخل وبثّ كل أنواع الأورام الخبيثة اللاإنسانية.

من هنا ينبع عنف العالمي - وهو عنف النسق الذي يلاحق كل شكل من أشكال السلبية والخصوصية singularite، ومن

ضمنها ذلك الشكل النهائي للخصوصية، أي الموت نفسه - وهو كذلك عنف مجتمع نكون فيه ممنوعين افتراضياً من النزاع والموت - كما إنه عنف يضع حدّاً للعنف نفسه إذا صح القول، ويسعى لإقامة عالم متحرر من كل نظام طبيعي، سواء أكان نظام الجسد أو الجنس أو الولادة أو الموت. وقد يكون من الضروري الحديث عن مقدار الحدّة الفيروسية (الضراوة) أكثر من الحديث عن العنف، فهذا العنف فيروسي: أي إنه ينتقل بالعدوى وعن طرق سلسلة من ردود الأفعال، ويدمّر بشكل غير محسوس مناعتنا وقدرتنا على المقاومة.

ومع ذلك لم يُقض الأمر ولم تنتصر العولمة سلفاً. وإزاء هذه القوة للمجانسة والتذويب، نشاهد قوى غير متجانسة في كل مكان، وهي ليست مختلفة فحسب، بل متضادة. ووراء أشكال مقاومة العولمة، أي تلك الأشكال الاجتماعية والسياسية التي تشتد ضراوتها، لابد أن نجد ما هو أكثر من رفض تقليدي، أي أن نجد نوعاً من المراجعة المؤلمة بالنسبة لمنجزات الحداثة و"التقدم"، نوعاً من التخلي - ليس فقط عن البنية التقنية العالمية، بل عن البنية الذهنية المتكافئة في كل الثقافات. ويمكن أن يأخذ هذا الانبثاق أوجهاً عنيفة وشاذة ولا عقلانية بالنسبة إلى فكرنا المستنير - أي أشكالاً جماعية أثنية ودينية ولغوية، بل كذلك أشكالاً فردية انفعالية أو عصابية. وسيكون من الخطأ إدانة هذه الهزّات بوصفها شعبوية وتقليدية بل وحتى إرهابية. إن كل ما يصبح اليوم حدثاً إنما يصبح كذلك باعتباره ضدّ الشمولية التجريدية - بما في ذلك تضاد

الإسلام مع القيم الغربية (وإذا أصبح اليوم أول عدوّ، فلأنه يمثّل أعنف معترض على تلك القيم).

من يقدر على إفشال النظام العالمي؟ ليست الحركة المناهضة للعولمة هي التي تستطيع ذلك بالتأكيد، أي هذه الحركة التي لا هدف لها سوى كبح الانفلات. ويمكن أن يكون التأثير السياسي مهمّاً، أما التأثير الرمزي فهو منعدم. كما يظل ذلك العنف نوعاً من المغامرة الداخلية التي يمكن للنظام أن يتجاوزها من موقعه الثابت بوصفه المتحكم في اللعبة.

ما يمكنه إفشال النظام ليس البدائل الإيجابية، بل هي الخصوصيات. والحال أن هذه الأخيرة ليست إيجابية ولا سلبية. وهي لا تمثل بديلاً، بل تنتمي إلى رتبة مختلفة. لذلك فهي لا تخضع لحكم قيمة ولا لمبدأ واقعية سياسية. فبإمكانها إذن أن تكون الأفضل أو الأسوأ. لذلك لا يمكن توحيدها في فعل تاريخي شامل. وهي تؤدي إلى إفشال كل فكر مفرد unique ومسيطر. لكنها ليست فكراً مفرداً - مضاداً - بل هي تبتكر لعبتها وقواعد هذه اللعبة.

ليست هذه الخصوصيات حادة بالضرورة، إذ توجد من بينها الخصوصيات (المهذبة) singularites subtiles،مثل خصوصية اللغات والفن والجسد والثقافة. لكن هناك الخصوصيات الحادة - ومن ضمنها الإرهاب. وهذه الخصوصية تثأر لكل الثقافات الخاصة التي ضحت باضمحلالها من أجل قيام تلك القوة العالمية الوحيدة.

فالأمر لا يتعلق إذن بـ "تصادم حضارات" بل بمواجهة أنثربولوجية تقريباً بين ثقافة كونية لا متمايزة وكل ما يحتفظ - في أي مجال كان - بشيء من الغيريّة التي لا تُختزل.

بالنسبة إلى القوة العالمية التي تعتبر تمامية، شأنها شأن الأرثوذوكسية الدينية، فإن كل الأشكال المختلفة والخصوصية هرقطات. وبهذه الصفة فإن عليها إما الاندماج طوعاً أو كرهاً في النظام العالمي، أو الاضمحلال. ومهمة الغرب (أو بالأحرى الغرب - سابقاً، بما أنه لم يعد يملك منذ زمن بعيد قيماً خاصة) هي في أن يخضع الثقافات المتعددة بكل الوسائل لقانون التكافؤ المتوحش. وليس بوسع ثقافة ما أضاعت قيمها سوى الانتقام من الثقافات الأخرى. بل إن الحروب - مثل حرب أفغانستان - تسعى أولاً - بغض النظر عن الاستراتيجيات السياسية أو الاقتصادية - إلى تطبيع التوحش وجعل كل البلدان تصطف وراءها. والهدف هو الحد من مناطق التمرد واحتلال وتدجين الأمكنة المتوحشة، سواء أكان ذلك في الحيّز الجغرافي أو في الكون الذهني.

إن إرساء النظام العالمي هو نتيجة غيرة متوحشة: أي غيرة ثقافة لا مبالية ذات مستوى متدنّ من ثقافات ذات مستوى رفيع - وهي غيرة أنظمة خائبة ومجردة من حدتها إزاء ثقافات تتميز بقدر كبير من الكثافة - أي غيرة المجتمعات الخالية من القدسية إزاء الثقافات أو الأشكال القربانية.

كل شكل من أشكال العصيان بالنسبة لمثل هذا النظام هو شكل إرهابي بصورة افتراضية[34] وهكذا ينطبق الأمر مرة أخرى

[34] بل يكن القول إن الكوارث الطبيعية هي شكل من أشكال الإرهاب. فالحوادث التقنية الكبرى مثل حادثة تشارنوبيل تعد أيضاً عملاً إرهابياً وكارثة طبيعية في الوقت نفسه. وكان من الممكن أن يعدّ التسمّم بالغاز في بوبال بالهند - وهي حادثة تقنية - عملاً إرهابياً. كما يمكن أن يتم تبنّي أي حادث طيران من قبل جماعة إرهابية. إن الصفة المميزة ←

على أفغانستان. فمنع الأمور الجائزة والحريات "الديمقراطية" في إقليم ما - مثل الموسيقى والتليفزيون بل وحتى وجوه النساء - وإمكانية أن يعاكس بلد ما بصورة مطلقة ما نسميه حضارة - مهما كان المبدأ الديني المتذرع به، كل ذلك غير مقبول بالنسبة إلى بقية العالم "الحر". ولا مجال لنكران الحداثة من حيث طموحها إلى الكوني. فعدم ظهور الكونية بوصفها الحقيقة البديهية للخير والمثل الأعلى الطبيعي للنوع (البشري) والتشكيك في أخلاقنا وقيمنا، حتى لو كان ذلك يتعلق ببعض العقليات التي توصف فوراً بالمتعصبة، كل ذلك هو عمل إجرامي بالنسبة للفكر المفرد والأفق الذي يُجمع عليه الغرب.

لا يمكن فهم هذه المواجهة إلا على ضوء الالتزام الرمزي. ولفهم حقد بقية العالم على الغرب، يجب قلب كل زوايا النظر. فليس هذا الحقد بحقد الذين قد سُلب منهم كل شيء ولم يُرجع إليهم أي شيء، بل هو حقد أولئك الذين قد أُعطوا كل شيء دون أن يتمكنوا من إرجاعه. فهذا الحقد إذن ليس ناتجاً عن انتزاع الملكية وعن الاستغلال بل هو حقد ناتج عن المهانة. ولم يكن إرهاب الحادي عشر من سبتمبر سوى ردّ على المهانة بالمهانة.

ـــللأحداث اللامعقولة هي القدرة على أن ينسبها المرء إلى أي كان وإلى أي شيء. وكل شيء بالنسبة للخيال - إلى حدّ ما - يمكن أن يكون مصدراً للجريمة، حتى موجة برد أو هزة أرضية. وليس هذا بجديد: فعندما اهتزت الأرض في طوكيو عام 1923، تم ذبح آلاف الكوريين بوصفهم متسببين في الزلزال. وفي نظام متكامل مثل نظامنا يملك كل شيء التأثير نفسه للإخلال بالتوازن. وكل شيء يسهم في تصور نظام يريد أن يكون معصوماً من الخطأ. وبالنظر إلى ما نعاني منه أصلاً في إطار هيمنته العقلانية والبرنامجية يمكن أن يسائل المرء نفسه ما إن لم تكن أسوأ كارثة هي تلك التي تتمثل في عصمة النظام عينه. (ج.ب)

لا يتمثل الأسوأ بالنسبة للقوة العالمية في الاعتداء عليها أو تدميرها، بل في إهانتها. وقد أُهينت عن طريق اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر، لأن الإرهابيين كبدّوها ما لا يمكنها ردّه. وكل الرد والثأرية ليسا سوى أداة انتقام مادي، في حين أنها (أي القوة العالمية) قد هُزمت رمزياً. إن الحرب تردّ على الاعتداء وليس على التحدي. ولا يمكن مواجهة التحدي إلا من خلال إهانة الآخر بالمقابل (وليس بالضرورة عن طريق سحقه بالقنابل أو احتجازه كالكلب في غوانتنامو).

إن قاعدة كل سيطرة هي انعدام المقابل - دائماً حسب القاعدة الأساسية. والهبة المقدّمة من طرف واحد هي فعل سلطة. فإمبراطورية الخير وعنف الخير يعنيان بالذات العطاء دون مقابل ممكن. ويعني ذلك احتلال موقع الإله، أو موقع السيد الذي يحفظ حياة العبد مقابل عمله (لكن العمل ليس مقابلاً رمزياً والجوار الوحيد إذن هو في النهاية التمرد أو الموت). مع أن الإله يترك مجالاً للقرابين. ففي النظام التقليدي، ثمة دائماً إمكانية تقديم القرابين - كمقابل - للإله وللطبيعة أو لأي سلطة كانت. وهذا ما يضمن التوازن الرمزي للكائنات والأشياء. واليوم لم نجد أيّاً كان لردّ المقابل وإرجاع الدين الرمزي - وتلك هي لعنة ثقافتنا. إن مرّد ذلك لا يعود إلى أن الهبة مستحيلة، بل إلى أن الهبة - المضادة هي المستحيلة، بما أن كل مسالك التضحية قد تلاشت وبطل تأثيرها (لم تبق سوى صورة مشوهة للتضحية، واضحة للعيان في كل الأشكال الراهنة للتضحوية victimalite (حالة المنكوب).

لذلك فنحن نواجه وضعاً يحتم علينا أن نقبل ما يقدم لنا - وبصورة دائمة - ليس من الإله أو من الطبيعة، بل من جهاز للتبادل المعمّم وللنّعم العامة. نُعطى افتراضياً كل شيء، ولنا الحق في كل شيء، طوعاً أو عنوة. فوضعنا هو وضع العبيد الذين تركت لهم حياتهم وقُيّدوا بديون من المستحيل تسديدها. ويمكن أن يستمر كل ذلك زمناً طويلاً بفضل الانخراط في التبادل وفي النظام الاقتصادي، لكن في لحظة من اللحظات ستتغلب القاعدة الأساسية، وسينتج حتماً عن هذا التحول الإيجابي تحوّل - مضاد سلبي وتنفيس لطاقة انفعال عنيفة، نتيجة هذه الحياة في الأسر وهذا العيش في كنف الحماية والتشبع. وتأخذ هذه الردّة إما شكل العنف المفتوح (وينتمي الإرهاب إلى هذا النوع من العنف) وإما شكل النكران العاجز، وهي خاصية من خاصيات حداثتنا وحقدنا على الذات وإحساسنا بالندم، وهذه جميعها انفعالات سلبية تمثل شكلاً منحطاً للهبة - المضادة المستحيلة.

ما نكرهه فينا، أي الشيء البغيض الغامض هو ذلك الإفراط في (الاعتداد) بالواقع، وذلك الإفراط في القوة وفي الرفاهية وذلك الاستعداد الكوني، وذلك الإنجاز النهائي - وهو القدر الذي يخبئه في الحقيقة أكبر المفتشين في محاكم التفتيش للجماهير المدّجنة عند دوستوفسكي. والحال أن ذلك هو بالضبط ما يرفضه الإرهابيون في ثقافتنا - وهذا ما يفسّر الصدى الذي يجده الإرهاب والتأثير السحري الذي يمارسه.

وهكذا، بقدر ما يقوم الإرهاب على يأس المهانين والمذلين، فإنه يقوم على اليأس الخفي للمنتفعين من العولمة، وعلى

خضوعنا لتكنولوجيا تامة ولحقيقة افتراضية ساحقة ولسيطرة الشبكات والبرامج التي ربما ترسم صورة متشابكة للنوع البشري بأكمله، هذا النوع الذي أصبح "عالمياً".

جان بودريار (يوليو 1929 - آذار 2007)

فيلسوف فرنسي من أصل جرماني. درس اللغة والأدب الألمانيين وواصل دراسته العليا في مجال الفلسفة. كان في بداية مساره ماركسياً (ترجم لماركس) ثم انطلاقاً من كشفه للتماثل القائم بين مفهوم "القيمة" بالمعنى الاقتصادي عند ماركس وبالمعنى اللغوي عند دوسرسير، صاغ نظرية للسيميائيات الاجتماعية. بدأ تدريس علم الاجتماع في جامعة نانتير بداية من العالم 1966 حتى أصبح أستاذاً بالجامعة عام 1972، كما شغل منصب مدير علمي بمعهد الأبحاث الاقتصادية والاجتماعية التابع لجامعة باريس. نذكر من بين مؤلفاته:

Pour une critique de leconomie politique du sign, 1972.

L Echange symbolique et la Mart, 1976.

Simulacra and Simulation, Standford University Press, 1988.

La guerre du Golfe na pas eulieu, Galilee, 1991.

La grime parfait, Galilee, 1994.

L Esprit du terrorime, Galilee, 2002.

Power Inferno, Galilee, 2002.

وله من بين كتبه المترجمة إلى العربية:

- المجتمع الاستهلاكي (دراسة في أساطير النظام الاستهلاكي وتراكيبه)، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الفكر اللبناني، 1995.

- الأشياء الفريدة، حوار مطوّل حول فن العمارة مع المعماري جان نوفيل، ترجمة راوية صادق، دار شرقيات.

- ذهنية الإرهاب (لماذا يقاتلون بموتهم؟)، بودريار بمشاركة فوليامي ودريدا وإيكو - ترجمة بسام حجار، المركز الثقافي العرب 2003.

- عنف العالم / بالاشتراك مع إدغار موران، ترجمة عزيز توما، دار الحوار، سوريا، 2005.

- روح الإرهاب، ترجمة بدر الدين عرودكي، المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، 2005.

الفصل السابع

فيليب كوركوف

هل يوجد فكر مناصر للعولمة البديلة؟

*بقلم: كسافيير مولينا**

بيير بورديو وأنطونيو نيغري ونوام تشومسكي وميغيل بينا صياغ ودانييل بنسعيد.... هذا الجمع غير المتجانس من الباحثين أو المثقفين (الذي يمكن أحياناً أن يكبر) يشكل ما نسميه عادة "الفكر المناصر للعولمة البديلة" الذي يغذي أفكار الحركة المناصرة للعولمة البديلة حول صيرورتها الخاصة. وإذا كانت التحليلات التي يقترحونها تناقش بإسهاب في ندوات الحركة الاجتماعية وفي المجالات المختصة، فإن الإحاطة بحقل التفكير الذي يساهمون في تحديد معالمه تظل صعبة بالنسبة إلى شخص ليس مناضلاً محنكاً. فما هي السجالات والأسئلة المطروحة على هؤلاء الكتاب وما هي أجوبتهم؟ وما الذي يضيفونه إلى التفكير المناصر للعولمة البديلة وإلى الفكر السياسي؟ تلك هي الأسئلة التي طرحتها مجلة Sciences

* Xavier Molénat صحفي في مجلة Sciences Humaines (المترجم).

Humaines على فيليب كوركوف الأستاذ المحاضر في علم السياسة في كلية العلوم السياسية بليون وعضو المجلس العالمي من منظمة Attac وهو ملاحظ للسجالات الجارية كما أنه يساهم في الوقت نفسه من خلال إعداده لما يسميه "الاشتراكية - الديمقراطية التحررية" (انظر أدناه).

لا توجد في رأيه وحدة بين مختلف الكتاب الذين يشكلون هذه "الكوكبة" المناصرة للعولمة البديلة، لكنهم يشتركون في أن أسماءهم هي من بين الأسماء الأكثر انتشاراً داخل المنابر الاجتماعية الأوروبية والدولية وأنهم من أكثر الكتاب المترجم لهم بمختلف اللغات. فقد سبق وأن حظي بيير بورديو بالشهرة الواسعة بفضل أعماله العلمية (وكذلك نوام تشومسكي، إلى حد ما) قبل نشر نصوص نقدية عن الليبرالية المستجدة، قام بترجمتها مناضلون مناصرون للعولمة البديلة. والأمر الآخر الذي استطاع أن ييسر انتشار أعمال أنطونيو نيغري وميغيل بينا صياغ أو جون هوللواي هو رجوعهم إلى كتاب مثل ميشيل فوكو وجيل دولوز اللذين كانا منتشرين في الولايات المتحدة وخارجها تحت عنوان "ما بعد البنيوية" (وهو تصنيف لم يكن رائجاً في فرنسا)، مقترنين بأسماء مثل جاك دريدا وجان بودريار وجان فرانسوا ليوتار وكذلك.. بيير بورديو. وقد أسهم ذلك فعلاً في حقيقة أن تجد المناقشات النظرية لهؤلاء المفكرين المناصرين للعولمة البديلة صدى داخل مختلف الأوساط الثقافية.

هناك عامل آخر بإمكانه أن يفسر انتشار هذا الفكر: وهو رأس المال الثقافي القوي للمناضلين المناصرين للعولمة البديلة. ويبين تحقيق حديث العهد حول المنتدى الاجتماعي الأوروبي للعام 2003[35] أن 51.6% من المشتركين يمتلكون ديبلوماً جامعياً أو ديبلوماً منحته إياهم مدرسة كبرى يتجاوز التعليم فيها الثلاث سنوات بعد البكالوريا (وقد بلغت نسبة حاملي الشهادات العليا 69.2%). وعلينا التعاطي إذن - مثلما أكد ذلك بيير بورديو "مع مواطنين مسلحين وأكفاء ومتعلمين وباستطاعتهم أن ينتجوا بأنفسهم خطابهم الخاص[36]"، في صلب حركة تعطي مكاناً طاغياً للتفكير، وتقتبس بعض صيغ أدائه من الحقل العلمي (من خلال تنظيم المنتديات والورشات والاستعانة بالخبرة الدقيقة...)[37]. ونستطيع في النهاية أن نشدد على الانبناء الجديد لحيز يتوسط الحقل الجامعي والحقل النضالي يشارك فيه أشخاص يقومون بوظيفتين في الوقت نفسه (فهم مناضلون عصاميون أو على غرار فيليب كركوف

---

[35] B.Gobille et A. Uysal, "Cosmopolites et déracinés". In E. Agrikolianski et I. Sommier (dir), Radiographie du movement altemondialiste, ladispute, 2005

[36] Entretien avec L. Zollet, 2000, www.bibliotheque-sonore.org, cité par M. Szczepanski – Huillery, "Mouvements écologiques et revues intellectuelles", in E. Agrikolianski et I. Sommier (dir),op. cit.

[37] M. Szczepanski-Huillery, "Mouvements écologiques et revues intellectuelles", op. cit.

باحثون مناضلون)، وهذا الحيز هو أحد المواقع التي تتجسد فيها مظاهر الانتقال من التفكير إلى الفعل. ويتجسد هذا الحيز مادياً بالخصوص حول مجلات جديدة، غير أكاديمية، يشارك فيها جامعيون وتمثل واحداً من القطاعات الأساسية لمناقشة الفكر المناصر للعولمة البديلة. من بين هذه المجلات، لابد أن نذكر بالخصوص **جماهير** Multitudes (التي تأسست في آذار / مارس 2000 وهي قريبة من أطروحات أنطونيو نيغري) **وظرف طارئ** Contertemps (التي برزت إلى الوجود في أيار / ماي 2001، ويرأسها دانييل بنسعيد) **وحركات** (التي تأسست في تشرين الثاني / نوفمبر 1998)، أو كذلك **ضجة** Vacarme (التي تصدر منذ شباط / فيفري 1997).

ماذا يقول مختلف هؤلاء المفكرين فيما وراء هذه الجوانب الهيكلية؟

بحسب فيليب كوركوف: "غالباً ما تطرح ضمنياً من خلال هؤلاء الكتاب مثلما هو الشأن داخل الحركة المناصرة للعولمة البديلة مسألة العلاقة بالماركسية، أي بما قد شكل "البرمجيات الفكرية" الرئيسية للحركات الاجتماعية السابقة". وبالفعل فإن "مشكلة الماركسية (التي تندغم في فكر كارل ماركس)، هي أنها تفترض تجانساً معيناً مع الذات الثورية، ومع الفاعل الجماعي الذي يلعب دوراً محركاً في التحرير أي البروليتاريا". والحال أن الماركسية - علاوة على نهاية الأنظمة الاستبدادية التي تنعت بـ "الشيوعية" في أوروبا، وانتكاس الحركة العمالية - مطروحة

للمساءلة من قبل مجموعة الفاعلين المتنوعة جداً الذين يشكلون الحركة المناصرة للعولمة البديلة: أي من قبل المنظمات غير الحكومية ONG ومن قبل النقابات والمزارعين والمدافعين عن الحيوان.. فالمشكلة المطروحة عندئذٍ هي: "كيف تتم إعادة تشكيل أفق للتحرر بينما تعبر عن وجودها مجموعة متنوعة جداً من الحركات؟ هناك نضالات تتلاقى حول تعليمات مشتركة (شعارات) mots dordre (مثل ضريبة توبن** وحملات التعبئة ضد الحرب...) دون أن تنطلق من وحدة مسبقة. وهناك نقاط التقاء بينما يظل الناس مختلفين جداً. كما يوجد أسلوب لاستنباط التنسيق الذي لا يسحق الاختلاف". ويتضح لنا أن مفهوم البروليتاريا يطرح هنا إشكالاً. وإذا أثرت الماركسية في السبعينات في تكوين من يشكلون اليوم أبرز المنشطين للحركة، فإن المسألة التي تنبثق اليوم هي مسألة تجديدها وحتى نقلها نحو أشكال أخرى.

من بين السبل التي يجري عبرها هذا الإصلاح، سبيل دمج الفكر التحرري خصوصاً لدى أنطونيو نيغري وميغيل بينا صياغ وجون هوللواي. ولا يخص هذا الدمج (المنظرين) "الكلاسيكيين" بالضرورة (مثل بيير برودون وميخائيل باكونين) بل يخص بقدر أكبر فلاسفة استلهموا نيتشه مثل ميشيل فوكو أو جيل دولوز اللذين يسمحان من خلال تأملاتهما

** tobin James اقتصادي أمريكي (1918)، من أنصار مذهب كينز، أستاذ في هارفرد ثم ييل، ومختص بالمسائل النقدية والمالية. عُرف بوصفه واحداً من أبرز أعداء المذهب النقدي monetarisme (نوبل للعلوم الاقتصادية 1981). (المترجم).

(مجموعة الموضوعات الخاصة بـ "الترحل" بوصفه شكلاً من أشكال المقاومة لدى جيل دولوز وتحليل تعددية أشكال السلطة لدى ميشيل فوكو)، بتغذية التحليل الوصفي والمعياري كليهما بلا انفصال، لتنوع أشكال التعبئة، وذلك عن طريق مفهوم "الجمهور" مثلاً المقترح من قبل أنطونيو نيغري.

وهكذا فإن السجالات كثيراً ما تدور حول الموقع الذي يجب أن يحتله داخل النظرية مختلف منشطي حركة العولمة البديلة. يقول الماركسيون الكلاسيكيون عن (مفهوم) الجمهور بأنه يسهم في إضعاف وتفتيت الصراعات الطبقية، فهو في رأيهم إثبات واقعي عن الانقسام والتفجير éclatement الراهن أكثر منه مفهوم إجرائي. و"الموضوع المثير للنقاش من وراء أنطونيو نيغري هو: هل هذا التنظير للتعددية هو إثبات واقعي لوضع العالم أم إنه مفهوم سياسي، بمعنى مفهوم قد يشكل علامة استدلال بالنسبة إلى التعبئة. وهو ما استطاعت البروليتاريا التوصل إليه؟".

(مفهوم) الجمهور هل هو مفهوم إجرائي؟

السجال حاد، لا سيما أن كتاباً مثل أنطونيو نيغري وميغيل بينا صياغ أو جون هولواي، هم بأنفسهم ينحدرون من الماركسية. وإذا وضعوا التنوع في الواجهة - داخل تحليلهم للتحرر - فإنهم يحتفظون مع ذلك برؤية موحدة جداً للمجتمع القائم من خلال نظام رأسمالي متجانس. وبالنسبة إليهم يظل

نظام العالم قائماً - من حيث نزعته العامة - على "سلطة التحليل الأخير" derniere instance وهو "النسق الرأسمالي". وذلك مما يفسر لدى هؤلاء الكتاب تعايشاً غريباً بين شكلين للفكر: الفكر النسقي والفكر المضاد للنسق pensée anti – systématique. "لدى ميشيل فوكو على سبيل المثال، إذا وجد تنوع في الصراعات الاجتماعية فمرد ذلك يعود إلى وجود تنوع في أشكال السلطة، وليس إلى وجود نظام مجتمع قائم على مركز قد يُرسمل capitaliser كل أشكال السلطة. والحال أننا بمجرد الانتقال إلى جون هوللواي وميغيل بينا صياغ أو أنطونيو نيغري، نجد في تحليل الموجود l' existant مركزاً هو المنطق السلعي. فقد خسرنا إذن جزءاً مهما من التحدي النظري الذي وضعه ميشيل فوكو!" بالاختصار "إن اقتباس مسألة التنوع من ميشيل فوكو وجيل دولوز من أجل التأمل في أشكال التعبئة وأشكال المقاومة لم يفض إلى إعادة التنظير لرؤية المجتمع". وقد ظلت هذه الرؤية نسقية systématique بدرجة كبيرة تقريباً. وتبلغ هذه النزعة أوجها عند أنطونيو نيغري الذي يكشف في العالم الراهن عن السيادة التي لا حد لها لما يسميه "الإمبراطورية" (راجع الورقة المصاحبة للمقال). " الإمبراطورية هي بمثابة ماتريكس*** إذا صح القول: لا وجود لخارجانية extériorité

*** Matrix (القلب الأم) اسم لثلاثية سينمائية أخرجها منذ بضعة سنوات الأخوان فلشوفسكي Wachowski. في هذا العمل يراقب برنامج معلوماتي كلي القدرة، الإنسانية، جاعلاً إياها تعتقد بأنها تعيش في عالم افتراضي. فالأسس المحسوسة لعلمنا تختفي لتترك مكانها للهلوسة الجماعية. (المترجم).

بالنسبة إلى النسق systéme، بل من داخل النسق فقط يمكن أن توجد ذاتية تستطيع المقاومة."

في هذا الإطار، يتكشف أثر بيير بورديو على أنه مفيد عندما يذكر بالخصوص من خلال مفهوم "الحقل" (راجع الورقة المصاحبة للمقال) "بوجود تعددية كذلك من زاوية الموجود I' existant". فلن يوجد نظام واحد بل عدة أنظمة مهيمنة لا تندمج داخل نظام وظيفي موحد وإن كانت بينها علاقات متبادلة.

فما هي الدروس التي نستخلصها إذن من المبادرات المتقدمة والمآزق لهذه "الكوكبة" من المفكرين المناصرين لعولمة بديلة؟ لقد تمثل مسعى فيليب كوركوف أولاً - في منتصف الطريق بين العلوم الاجتماعية والفلسفة السياسية - في رد الاعتبار لما يسميه "المسألة الفردانية"[38]. فهناك حسب رأيه "سيرورتان اجتماعيتان كبريان في مجال التفاعل قد طبعا على وجه الخصوص القرن التاسع عشر، وهما: انبثاق الطبقات العمالية وتطور التفريد individualization. بل إن كتاب ذلك العهد، مثل بيير برودون وكارل ماركس قد حملوا على محمل الجد مسألة الفرد، ورسموا مخططاً للتمفصلات بين النقد الاجتماعي للرأسمالية (عن طريق مهاجمة التوزيع الجائر للثروات) والنقد الفرداني (الذي يستهدف إفقار الكائن الفرد من خلال سيادة الملكية lavoir وسيطرة

38 R.Castel et C. Haroche, Propriété privee, propriété sociale, propiété de soi. Entretiens sur la construction de l individu modern, Fayard, 2001.

المال). وهكذا، باسم فردية مبدعة، يدين كارل ماركس بداية من ظهور كتابات 1844 الطابع الاختزالي للفردانية السلعية. والحال أن النقد الاجتماعي - داخل تشكل الحركة العمالية - هو الذي حظي بالأولوية (من خلال ما سيعرف فيما بعد بالماركسية على وجه الخصوص)".

هل يتجه المسار نحو اشتراكية - ديمقراطية تحررية؟

منذ الستينيات، يقوم التفريد المتنامي للحياة داخل المجتمعات الغربية (وقد حلل هذا التفريد تحليلاً سلبياً بالخصوص علماء اجتماع مثل ريتشارد سينيت وكريستوفر لاش وألان إرنديرغ، كما حلله بالمقابل تحليلاً إيجابياً انطوني غيدنس وفرانسوا دي سينغلي أو جان - كلود كوفمان...) بإحياء هذا النقد الفرداني في الواقع من جديد. لكن تخلفية rémanence مقولات الإدراك التي يسيطر عليها الشكل الجماعي le collectif تولد حسب فيليب كوركوف خطراً يتمثل "في أن أشكال التمرد اليوم يعبر عنها بكلمات الأمس. فداخل الحركة المناصرة للعولمة البديلة توجد نزعة مشروعة للتنديد بالليبرالية المستجدة بسبب الأسلوب الذي تقوض بواسطته الأشكال الجماعية les collectives السالفة (أي أشكال التضامن الطبقي والخدمات العامة...)، لكن تصاحب ذلك رغبة في القول بأن التفريد لن يعدو أن يكون تأثيراً ضاراً تسببه الرأسمالية المستجدة. والحال أنني أعتقد بأن عدم حمل صورة الفرد الحديث على محمل

الجد بما فيه الكفاية، من خلال فخاخه النرجسية والمكتسبات الإيجابية لاستقلاله في الوقت نفسه، يشكل خطأين، الأول نظري والثاني استرتيجي". مع العلم أن هذا التفكير لا يخصه وحده بما أن شخصاً مثل أنطونيو نيغري يستطيع أن يمتدح الضرورات "ما بعد الحديثة" للحركية والمرونة، تلك الضرورات التي تميل الليبرالية المستجدة إلى فرضها على العمال بالدعوة - ليس كما يريد النقد الاجتماعي الكلاسيكي - إلى الحد من مدى تقدمها على الميدان، بل إلى مواكبة هذا التقدم من أجل تدميره من الداخل بشكل أفضل عن طريق مزيته التحررية افتراضياً بالنسبة للفرد. قد يكون إذن من بين التحديات الراهنة، حسب فيليب كوركوف إعادة التأمل في علاقة النقد الفرداني بالنقد الاجتماعي، و "التأمل في توتير هذين البعيدن المتعارضين إلى حد تلك اللحظة (من خلال المواجهة بين الفكر التحرري والفكر الماركسي) أي هذين البعدين المجتمعين في الوعد بمجتمع متناغم قد يلغي هذه التناقضات (مجيء الشيوعية عند كارل ماركس مثلاً)". و"الاشتراكية - الديمقراطية التحررية" التي ينادي بها[39] والتي من الممكن أن تشكل حركة مناصرة العولمة البديلة، بوتقتها ستكون بحق إطار تلك الجدلية التي تلزم من ناحية بعدم الاختيار بين مسألة الحقوق الفردية ومسألة العدالة الاجتماعية، ثم تقول من ناحية أخرى بعدم وجود تأليف ممكن، على منوال

39 P.Bourdieu, “La délégation et le fétichisme politique” in P. Bourdieu, Langage et pouvoir symb” olique, Seuil, coll. “Points”, 2001

بيير برودون الذي تحدث عن "إيجاد توازن بين المتناقضات": أي إن "المجتمع الأفضل ليس المجتمع الذي يلغي التناقضات، بل هو المجتمع الذي ينظم عملية توتيرها".

كما يمكن أن يتعلق هذا التوتر أيضاً بمسائل أخرى، مثل مسألة المؤسسات. فقد انتقد ميشيل فوكو والفكر الفوضوي نقداً شديداً علاقات السلطة وعدة أشكال للسيطرة البيروقراطية قد ولدتها المؤسسات. وعلى النقيض، يجب التشديد - مع بروز التقليد المستند إلى دوركهايم وعلماء اجتماع مثل روبير كاستيل[40] - بأن لها أيضاً مهمة الدفاع، ليس فقط عن الحقوق الاجتماعية، بل كذلك عن حقوق الفرد. وبالفعل فإن هؤلاء الكتاب يشددون على دور الدولة الاجتماعية التي وفرت - من خلال ضمانها لتوقعية الحياة (عن طريق الضمان الاجتماعي ونظام التقاعد...) "الركائز الاجتماعية" supports sociaux التي سمحت للفرد بأن يتكون بوصفه ذاتاً مستقلة. وتتعلق المسألة الأخيرة التي يثيرها فيليب كوركوف بالتمثيل السياسي. فالنقد التحرري يشدد على الخطر الذي يكونه الناطقون بلسان الآخرين بشكل غير محسوس بشأن المصالح الخاصة، مما يجعلهم يستقلون بأنفسهم بالنسبة إلى من يمثلونهم. وقد بين بيير بورديو من ناحية أخرى أن هؤلاء الناطقين بلسان الآخرين ضروريون، لكي توجد في الفضاء العمومي هويات ومصالح وطموحات. لذلك

---

40 M. Merleau-Ponty, Les Aventures de la dialectique, 1955, rééd. Callimard, coll. "Folio", 2000.

شدد هذا الأخير على "وجوب المجازفة دائماً بالاستلاب السياسي من أجل مقاومة الاستلاب السياسي" أي: بعبارة أخرى سيكون من اللازم وجود ناطقين بلسان الآخرين، لكن وجودهم سيتضمن خطر سيطرة يمارسونها على من يمثلونهم. وهذا التوتر، مثل التوترات الأخرى، لن يكون قابلاً تماماً للتجاوز في مجتمع مثالي.

إذا ظل هذا الطرح حول الاشتراكية - الديمقراطية التحررية في حاجة إلى التحليل والمناقشة، فإن له الفضل في إبراز التناقضات القائمة بين مختلف التيارات الفكرية التي تشكل الحركة المناصرة للعولمة البديلة وصعوبة منحها جواباً نظرياً موحداً. ويقترح فيليب كوركوف، كمسلك للخروج - على التحرريين والماركسيين وبصورة أعم على الحركة المناصرة للعولمة البديلة في جملتها - أن نحمل على محمل الجد الملاحظة التي سبق وأن قدمها منذ خمسين عاماً الفيلسوف موريس مارلو - بونتي: "ليست الجدلية بالأمر المتداعي، بل الأمر المتداعي هو ادعاء إنهائها."

نعوم تشومسكي أو فكر "الضد"

يعتبر الأمريكي نوام تشومسكي (المولود سنة 1928) واحداً من أكبر اللغويين في النصف الثاني من القرن العشرين. وهو يعمل كأستاذ في معهد من أرفع المراكز العلمية: "معهد ماساشوسيتش للتكنولوجيا (أم أي تي)". ويمثل تشومسكي رمزاً لبعد "الضد" بالنسبة إلى نزعة مناصرة العولمة البديلة: أي الرفض الثلاثي بمعنى رفض وسائط الإعلام المهيمنة ورفض السياسة الأمريكية الإمبراطورية ورفض السوق المطلقة marché roi.

وقد أثر كتاب ألفه بالاشتراك مع إدوارد س. هيرمان عنوانه: صناعة الرأي العام[41] في نقد المناصرين للعولمة البديلة لوسائط الإعلام بوجه خاص.

يقدم المؤلفان في هذا الكتاب "نموذجاً من الدعاية" ستكرس وفقه "وسائط الإعلام الأمريكية الكبرى" نفسها "للدعاية تخدم

---

[41] N. Chomsky et E.S. Herman, La fabrication de l opinion publique. La politique economique des medias americains, 1988, trad. Fr. Le Serpent a Plumes, 2003.

مصالح الشركات التجارية الجبارة التي تراقبها، من خلال تمويلها، والتي يكون ممثلوها في وضع يمكنهم من توجيه الإعلام". ويستعرض هذا التحليل حركة التركيز الاقتصادي الجاري في قطاع وسائط الإعلام، كما يستعرض الأخطار التي تجعل هذه الحركة تضغط بثقلها على التعددية الفكرية والسياسية. غير أن لهذا التحليل سلبيات تبسيطية. فهو ينزع إلى توحيد الواقع حول ترسيمتين هما الترسيمة الاقتصادية (ستفرض القيود الاقتصادية قانونها على التطبيقات الصحفية) والترسيمية التآمرية (ستكون المسألة نابعة أساسياً من "مؤامرة" إردابة حيكت خفية من قبل بعض الأقوياء). وهو يسيء - داخل تحليل العلاقة بين الباث والمتقبل - تقدير المصافي النقدية التي يمتلكها المتقبل.

مركز الاهتمام النقدي الآخر لتشومسكي هو السياسة الخارجية للولايات المتحدة، من حرب الفيتنام إلى حرب العراق، مروراً بالتدخلات الأمريكية في أمريكا الوسطى في الثمانينات. في هذا المجال يقدم تشومسكي الحرب وسياسة التدخل بوصفها محوراً مركزياً للسياسة الأمريكية، في "مصلحة الأشخاص الذي يسيطرون ويراقبون ويمتلكون أو يؤثرون في الاقتصاد الأمريكي"[42]. هذا التحليل الجريء في وضوحه بالنسبة إلى مواطن أمريكي يبرز جيداً سلسلة من الفوارق بين خطابات المسؤولين الأمريكيين حول حقوق الإنسان، وخروقات متعددة لهذه

---

[42] **N. Chomsky, De la guerre comme politique etrangere des Etats- Unis, Agone, 2004**

الحقوق من قبل الإدارات الأمريكية المتعاقبة، لكننا نسجل هنا أيضاً نزوعاً إلى مجانسة السياسة الأمريكية، وذلك حول منطق اقتصادي حصري وصورة المؤامرة في آن واحد.

كما نستنتج من التدخلات السياسية لنوام تشومسكي روحاً تحررية[43]، منسجمة مع توقعات مناصرة العولمة البديلة. ذلك أن وهناً معيناً للماركسية يدفع المناضلين إلى البحث من ناحية التقليد الفوضوي عن موارد جديدة. وهكذا يتجند فيلسوفان فرنسيان، منضمان إلى "نزعة نيتشوية فرنسية" هما جيل دولوز (1925 - 1995) وميشيل فوكو (1926 - 1984) من أجل بعث هذا الحس التحرري. فهما يضيفان الانشغال بالتعددية وبالاختلافات بالرجوع إلى فكر التنوع في الحياة الخاصة بفريدريك نيتشه (1844 - 1900) فأنطونيو نيغري مثل ميغيل بيناضياغ أو جون هوللواي يعودون جميعهم إلى هذا المرجع.

---

[43] **Voir N. Chomsky, Instinct de liberte. Anarchisme et socialism, Agone, 2001.**

أنطونيو نيغري

الجمهور ضد الإمبراطورية

أصبح الكتاب المعنون بـ الأمبراطورية للجامعي الأمريكي ميكيل هاردت والفيلسوف الإيطالي أنطونيو نيغري[44] من أروج كتب الاحتجاج على الصعيد الدولي. ويشكل كتابهما المعنون ب: الجمهور[45] تكملة للكتاب السابق. ويواصل هذان الكتابان أعمالاً بدأها أنطونيو نيغري حول باروخ سبينوزا (1932 - 1977) وكارل ماركس (1818 - 1883). فالأمر يتعلق بخلق إطار ما بعد ماركسي post-marxiste، مغذى دائماً من خلال كارل ماركس، لكنه يبحث عن انفتاح في اتجاه جيل دولوز وميشيل فوكو. وتُناقش أطروحات أنطونيو نيغري بوجه خاص في فرنسا في مجلة جماهير Multitudes، التي يديرها الاقتصادي يان مولييه بوتانغ.

---

[44] M. Hardt et A. Negri, Exils, 2002

[45] M. Hardt et A. Negri, Mutitude. Guerre et démocratic a l' age de l' empire, La Découverte, 2004.

قد تكون الإمبراطورية الشكل الأعلى للسيطرة الأممية للرأسمالية المتمايزة بالنسبة إلى الإمبرياليات السابقة. فالدول - الأمم، بل أقوى دولة من بين هذه الدول (الولايات المتحدة) لن تكون لها الأولية. وتمتد الإمبراطورية ضمن منطق دائم من الحركية داخل شبكات معينة: "هي جهاز لا مركزي للحكم ومجرد من الطابع الإقليمي deterritorialisée، يدمج تدريجياً فضاء العالم بأسره داخل حدوده المفتوحة والممتدة باستمرار." وستكون الإمبراطورية "سلطة مطلقة"، ليس لديها "أي خارج". والمكان المهيمن الذي سيشغله "العمل اللامادي" أي "شكل من أشكال العمل يخلق نتاجات لا مادية مثل المعرفة والإعلام والتواصل والعلاقات أو كذلك ردود الفعل الانفعالية" سيكون خاصية من بين أهم الخاصيات الاجتماعية - الاقتصادية بالنسبة للإمبراطورية.

ومع ذلك فإن إمكانيات جديدة للتحرر ستبرز "من داخل الإمبراطورية". وهي "أشكال المقاومة والنضالات والرغبات بالنسبة إلى الجمهور". ويظهر هذا الجمهور الذي يعد ذاتاً تحررية مشتتاً. وهكذا فإن "الجمهور تعددية ومجموع فرديات individualités". فمن خلال المواجهات مع السلطات "المتشكلة" (المؤسسات والتمثيل السياسي (ستنبثق "السلطة المشكّلة للجمهور" (الغليان المولّد للذاتيات).

يجبرنا مايكل هاردت وأنطونيو نيغري على رؤية العالم في طور التشكل بعين أخرى دونما حنين. وبالمقابل فهما لا يبدوان - إذ يركزان على الجديد - منتبهين بما فيه الكفاية لصفة الواقع المركبة

دون الاقتصار على النزعات الجديدة. وإزاء انحرافات المأسسة (المتشكل) التي تعترض الحركات التدميرية بصورة متواترة، يكون لهما الفضل في إبراز البعد المولد للذاتيات في المقدمة (أي "السلطة المشكلة للجمهور"). لكنهما يتحاشيان - بتركيزهما على "ما يتحرك" - مواجهة مسألة المؤسسات التي تمتلك كذلك جوانب تحمي الحقوق الفردية والجماعية.

ويعرض المؤلفان مباشرة لمسألة التعددية البشرية. غير أن مزاوجة الماركسية بالنيتشوية لديهما توشك أن تجمع جنباً إلى جنب سلبيات هذين التيارين الفكريين: أي التيار الخاص بنظرة أكثر انسجاماً للنظام القائم بالنسبة إلى الماركسيين (الإمبراطورية) من جهة، وتيار تشتت الاحتجاج المستعار من التقليد النيتشوي (الجمهور) من جهة ثانية. ويبدو العالم الراهن في غاية التماسك بينما توجد قوى المقاومة في غاية التشتت. ومع ذلك فهما يصوّبان الأمر - نوعاً ما - من جديد في كتابهما **الجمهور**: فيكون الجمهور "نتاجاً لخصوصيات تعمل معاً". ولهذا التناغم المطروح كمصادرة، بين الخصوصيات الفردية والحيز المشترك ما يجعله يشبه حكاية عيد الميلاد conte de Noel السحرية تقريباً.

جون هوللواي و"السلطة النقيض"

فيليب كوركوف

يدرّس جون هوللواي علم السياسة في جامعات إدمبورغ (بريطانيا العظمى) وبيوبلا Puebla (المكسيك). وقد أثار كتابه: **تغيير العالم دون الاستيلاء على السلطة** Change the World Without Taking Power [46] عدداً من المناقشات في أمريكا اللاتينية وفي العالم الأنكلوسكسوني. إن تنظيره مستلهم من تجربة حركة المتمردين الزباتية الجديدة* Guérilla néozapatiste بقيادة الرائد ماركوس، في جبال شياباس بالمكسيك. ففي الأول من كانون الثاني 1994، بينما دخل اتفاق التبادل الحر الأمريكي - الشمالي (Alena) حيز التنفيذ بين

---

[46] **J. Holloway, change the world without taking power, Pluto Press, 2003, trad. Fr. A pàraître chez Syllepses.**

* **نسبة إلى Zapata (Emiliano) متمرد مكسيكي (1879 - 1919). في شهر آذار / مارس 1911 قاد مزارعو جنوب البلاد تمرداً مسلحاً رافعين شعار "الأرض والحرية" - المترجم.**

الولايات المتحدة وكندا والمكسيك، قامت القوة العسكرية للتحرر الوطني التابعة لزباتا (AZLN) باحتلال عدة مدن في منطقة شياباس. لكننا نجد أنفسنا أمام حركة متمردين مفارقة تقر بأنها لا تريد الاستيلاء على السلطة.

ينطلق جون هوللواي من حصيلة لمختلف تجارب اليسار في القرن العشرين: "مهما كان شكل الاستحواذ على سلطة الدولة فهي لم تسمح بإنجاز التغييرات التي كانت تنشدها الأطراف الأساسية في الصراع."[47] لذلك فإن "الشكل الوحيد لتصور تغيير جذري اليوم لا يتعلق بالاستحواذ على السلطة بل بحل السلطة". وهذا ما يفسر موضوع "السلطة النقيض" الموجهة ضد "النظريات الماركسية الأرثوذكسية". ولكي لا تعيد حركات مقاومة الاضطهاد الرأسمالي واضطهاد الدولة إنتاج الأشكال التي تحاربها، يجب "كسر الاستمرارية، ليس كسر استمرارية سيطرة تلك الأشكال فحسب بل كذلك استمرارية إنتاجنا لسيطرتها[48]".

ويبرز رفض تقديس الدولة، على إثر جرائم الأنظمة الشيوعية الكليانية أو خيبة أمل التجارب الاشتراكية - الديمقراطية، بوصفه سبيلاً سياسياً مثمراً. لكن هل يعني ذلك ضرورة التخلي عن المعركة حول المؤسسات واعتبارها سبباً دائماً لجميع السلبيات؟

---

[47] J. Holloway, "Douze théses sur l antipouvoir", Contertemps, n 6, février 2003

[48] J. Holloway, "Conduis ton char rt ta charrue par-dessus les ossements des morts", Contretemps, N° 8, Septembre 2003.

ميغيل بيناصياغ ومنطق السلطة - المضادة

فيليب كوركوف

المحلل النفسي الأرجنتيني الأصل ميغيل بيناصياغ يجهد نفسه أيضاً ليمنح الماركسية رئة تحررية جديدة، وقد ألف بين رؤاه المستقبلية في كتابين هما: في السلطة - المضادة، بالاشتراك مع الفيلسوف الأرجنتيني دييغو ستولوارك[49]، والمقاومة هي الإبداع بالاشتراك مع الصحفية فلورنس أوبيناس[50].

الراديكالية الجديدة التي ينادي بها ميغيل بيناصياغ تكتشف فكراً خاصاً بتوازن السلطات، سبق أن قدم له مونتسكيو (1689 - 1755).

---

[49] M. Benasayag et D.Sztulwark, Du contre- pouvoir, La Découverte, 2000.

[50] F. Aubenas et M. Benasayag, Résister, c' est créer, La Découverte, 2002.

وهكذا ستتحقق الحركات الاجتماعية المعاصرة بوصفها "سلطات - مضادة". بعد أن أصبح النضال من أجل "الاستيلاء على السلطة" أمراً "ثانوياً".

لكن عندما يطعن ميغيل بيناصياغ وديبغو ستولوارك في كل "استراتيجية للتغيير الشامل" يمكن أن نسأل أنفسنا عن إمكانية أن يكون قد غاب عن بالهما المعنى الشمولي في قاعدة "الأصغر هو الأجمل" small is beautiful المفرطة الغزلية. غير أنهما يقدمان تحليلاً مبتكراً للعلاقات القائمة بين التصرف والسياسة: "ليس التصرف ما يعارض السياسة بل هو تقريباً العنصر الذي ينبثق من الصراع الديناميكي أي من الصراع السياسي". فالقطبان يبدوان ضروريين ومتكاملين وإن كانا متوترين.

وتتلين الراديكالية الجديدة كذلك أمام تحدي عدم التأكد وعدم الصلابة. وهو ما يدفعها إلى إدانة تحجر الأشكال النضالية التقليدية الواثقة جداً من "حقائقها" والعاجزة عن اكتشاف أساليب أخرى للحياة، هنا والآن، أي أساليب تؤجل إلى مستقبل بعيد اللحظة التي ستتمكن فيها السعادة من أن تنوب عن التضحية (أي "المساء المشهود" Grand Soir الشهير "المقصود يوم الثورة الاجتماعية"). أما المناضل الراديكالي الجديد فإنه سيكون "مناضلاً - باحثاً" مجرباً. لكن هل يعني ذلك ضرورة أن نحرم من "الشكل القديم للحزب" مثلما يناديان بذلك أم ضرورة السعي إلى تجديده؟.

بيير بورديو وتعددية أشكال السيطرة

فيليب كوركوف

يعرف المناضلون المناصرون للعولمة البديلة انتقادات بيير بورديو خصوصاً (1930- 2002) لليبرالية المستجدة[51] وليس ذلك من أكثر الأشياء أصالة لديه. بل إن أعماله السوسيولوجية، قد جددت النقد الاجتماعي بعمق بالمعنى الصريح لما بعد الماركسية. وهو جانب أصبح معروفاً شيئاً فشيئاً من قبل الأوساط المناصرة للعولمة البديلة[52].

كما يأخذ بيير بورديو على عاتقه كذلك تحدي التعددية. فقد يكون المجتمع مكوناً من تشكيلة variété من الحقول

[51] P. Bourdieu, Contre-feux, liber/ Raisons d agir, 1998, et contre-feux 2. Pour un movement social européen, Liber/ Raisons d agir, 2001.

[52] Voir notamment P.Corcuff, Bourdieu autrement. Fragilites d un sociologue de combat, textuel, 2003, et sur le site alternatife Calle Luna:
http://calle-luna.org/article.php3?id_article=136.

الاجتماعية المستقلة: أي الحقل الاقتصادي وكذلك السياسي والفكري والديني، إلخ.

الحقل هو دائرة sphére للحياة الاجتماعية حققت استقلالها بالتدريج عبر التاريخ. وكل حقل مركب (مبنين) عن طريق علاقات خاصة للسيطرة. فلن يشكل المجتمع إذن "نسقاً" متجانساً ووظيفياً حيث يندمج كل شيء حول محور رئيسي. وستكون هناك تعددية في الأساليب الممتزجة للسيطرة. فيمكن للعامل المستغل أن يسيطر مثلاً على زوجته. كما يمكن للمثلي homosexuel الخاضع لتأثير النفور من المثليين الجنسيين homophobie أن يندرج ضمن منطق عنصري، إلخ.

يدل مفهوم الاستقلالية على أن ما يجري في الحقل السياسي (أو في الحقل الديني) ليس بالضرورة - حتى "في آخر تحليل" (مثلما يقول الماركسيون) - مفروضاً من خلال ما يجري في الحقل الاقتصادي. كما أن السيطرة الثقافية أو (السيطرة الذكورية) لا تتبع بالضرورة - حتى في آخر التحليل - الاستغلال الاقتصادي. وهكذا فإن سيطرة رأس المال الاقتصادي على العمل وحركة توسع السلعة المقترنة به ستشكلان في الواقع واحداً من الخيوط الرئيسية في مجتمعاتنا المعاصرة. ومع ذلك سيكون من الواجب الانتباه إلى تناقضات الأنظمة المسيطرة orders dominants (بصيغة الجمع)، وإن لم يكن لها جميعاً نفس الوزن في مستقبل العالم.

دانييل بنسعيد أو العودة المالنخولية للماركسية

فيليب كوركوف

من زاوية الورثاء لكارل ماركس، تم تجاوز فترة الرتابة الدغمائية. فالفيلسوف دانييل بنسعيد هو من صانعي هذا التجديد خصوصاً في إطار مجلة ظرف طارئ Contretemps التي يرأسها.

ضمن كتابه عالم للتغيير Un monde à changer[53]، يتعرف دانييل بنسعيد على رهانات الحقبة "بعد الهزائم الاجتماعية والأخلاقية الكبرى في القرن العشرين، من حقنا (ومن واجبنا) أن نبدأ وأن نعقد خيوط التحرر المنقطعة ثانية وأن نغير العالم قبل أن يغرق في الكارثة الاجتماعية والبيئوية."

---

[53] D. Bensaïd, Un monde à changer. Mouvements et stratégies, Textuel, 2003.

أثناء مناقشة نقدية مع بيير بورديو، يظل هذا المثقف مرتبطاً مثل أنطونيو نيغري برؤية تأليفية vision totalisante للنظام الرأسمالي. فبالنسبة إليه، يواصل "المنطق الكلي لرأس المال" فرض نفسه على مجموع العلاقات الاجتماعية في مجتمعاتنا. وعلى الصعيد السياسي، فهو يبتعد عن منظور أنطونيو نيغري وميغيل بيناصياغ وجون هوللواي. وهو ينبه إلى خطر الانحلال في السياسة المفهومة على أنها "فن التوسطات"، وإذا أرجعنا إلى مسالك التاريخ الاعتيادية التوسطات السياسية مثل الأحزاب. فهو يتساءل: هل تصبح "سياسة بلا أحزاب" "سياسة بلا سياسة"؟

يبدو دانييل بنسعيد من أهم المجددين عندما يسلك دروباً مالنخولية، عند تخوم الماركسية. وهكذا فهو يكتشف في كتابه **الرهان المالنخولي** le Pari mélancolique[54] سُبل مالنخوليا فاعلة وراديكالية، تبحث في ماضي العمل العسكري لفتح المستقبل ثانية. وهي ليست "مالنخوليا رومنسية" متجهة حصراً نحو الماضي، بل هي "مالنخوليا كلاسيكية" تستمد من التقليد (المتوارث) tradition ما يحفظ توازنها الأخلاقي un lest étique، أي ما يسمح لها بمقاومة بداهات مناخ العصر المضلَّلة والمضلِّلة وبطرح مسألة التحرر ثانية، ضد الادعاء السلعي الأبدي. هل علينا أن نواصل تسمية هذا الهدف التحرري "شيوعية" مثلما يعتقد دانييل بنسعيد؟ كثيرون يشككون في ذلك ضمن كوكبة المناصرين للعولمة البديلة ويدعون إلى ابتكار جديد أكثر راديكالية.

---

[54] **D.Bensaïd, Le Pari mélancolique, Fayard, 1998.**

الفصل الثامن

سلافوي زيزيك

الشبح لا يزال يطوف

تقديم لوران جون بيير

هذا الشبح الذي لا يزال يطوف، هو بطبيعة الحال شبح الشيوعية. وليست أوروبا وحدها هي المسكونة بهذا الشبح بل الكوكب بأمره. وهذا ما سمّاه الكاتب موريس بلانشو ب"الاقتضاء الشيوعي". ** L exigence communiste الذي يظل حيّاً بعد فشل الشيوعية التاريخية. ويظل هذا الاقتضاء حيّاً لأنه يأتي من مسافة بعيدة جداً. وهو أمر يثير الانشغال. كما أن هذا الاقتضاء يظل حياً بعد صعود الفردانية التي لا تنفصل عن الحداثة وعن اللامبالاة والانفصال، وعن الملل والمنافسة التي تشكل خلفية التجربة الذاتية اليومية. وبالرغم من ذلك

** وردت هذه المقاطع من المقدمة ومن النص الأصلي لزيزيك في كتاب:

Slavoj Zizek, Le spectre rode toujours, actualité du Manifeste du Parti communiste, trad. Laurent Jeanpierre, éd. Nautilus, Paris 2002.

- Maurice Blanchot, La Communauté inavouable, Paris, Minuit, 1983.

فإن سلافوي زيزيك يكتب عن ضرورة الشيوعية، هذه الضرورة المستمرة والتي لا يمكن تفاديها.

ولد سلافوي زيزيك بعد نهاية الحرب العالمية الثانية في العام 1949 بليوبيليانا، في أثناء حرب أخرى هي الحرب الباردة الدائرة في يوغوسلافيا. لم يبلغ العشرين عاماً عندما اندلعت أحداث 1968. ونظراً لخضوع الحركة الطلابية السلوفينية لتلاعب الحزب - وهو حزب يوغوسلافي ذو ماركسية غربية بصورة بالغة ومنفتح على مدرسة فرنكفورت كما ينادي باشتراكية مناصرة للتسيير الذاتي - فإن زيزيك لن يساهم في تلك الحركة إلا من مسافة بعيدة، وسيجد نفسه في باريس لفترة وجيزة في أوت - آب وسط الأعقاب الأخيرة من الانتفاضات. وقد شارك عندما كان طالباً في الفلسفة بجامعة ليوبيليانا في مجلة Problemi التي - بالرغم من أن الحزب هو الذي أنشأها، فقد سمحت لزيزيك بإدخال جانب كبير من الفكر الماركسي وما بعد الماركسي الموجودين في أوروبا الغربية وفي فرنسا خاصة، وذلك عندما كان ينشر في صفحاتها ترجمات - إلى اللغة السلوفينية، للمرة الأولى في أغلب الأحيان، ودون أدنى تمييز إيديولوجي مسبّق، لنصوص كتبها ألتوسير ودريدا وديلوز وغتّاري وليوتار، إلخ. وانطلاقاً من نهاية الستينيات، وبمشاركة عدد قليل من أهل المعرفة بأعمال جاك لاكان، ترأس زيزيك المجلة التي بدّل اتجاهها.

تضطلع مجلة Problemi بلا ريب في السبعينيات والثمانينيات بالدور الذي قامت به Praxis في زغرب أو

Perspectiven في ليوبليانا بالنسبة إلى الجيل السابق الذي حافظ على علاقات مع التجديد الماركسي hétérodoxie الغربي في الخمسينيات والستينيات مع مجلة Arguments مثلاً - التي أصبحت تبثّ في الجامعات استنتاجاتها المشجعة، وبعبارة أخرى عدميتها وتكاملها التامّ.

إذا استثنينا بعض الأعضاء المنتمين إلى مدرسة بودابيست - نذكر من بينهم فرينيك فِهِر وأنياس هيللّر وكاريل كوسيك - فإن سلافوي زيزيك هو أحد المنظرين الماركسيين في أوروبا الشرقية سابقاً الذي احتلّ موقعاً في العالم الغربي، وإن كان ذلك ضمن مجموعات سميت بالمجموعات المثقفة. ولأنه تشبّع تقريباً بصورة طبيعية بالتقليد الماركسي - اللينيني فإن عمله نابع من الاتجاهين، أي صعوداً ونزولاً، أي نحو الفلسفة الألمانية أولاً ونحو البنيوية الفرنسية وتحوّلاتها العديدة ثانياً. وهو لذلك يقدم للقارئ المعاصر حصيلة غريبة ومفزعة حتى بالنسبة إلى ما تبقّى من القراءات الماركسية، وإن كانت بدعية heretiques. فزيزيك موجع لأنه يجسّد عودة مطرود فرنسي. ألم ننس اسم ماركس خصوصاً عندما كان الناس بلشفيين إلى أبعد حدّ، وشيوعيين بلا تبصّر، وماويين بغباء؟ إذا كنتم تريدون التحقق من ذلك، فابدأوا مع سوفارين**، إلخ. لكن حقيقةَ ألا تشكّل الماركسية

** Boris Sovarine : سياسي فرنسي (ولد بكييف 1895 وتوفي بباريس 1984). أنشأ لجنة الانتماء إلى الأممية الثالثة (1919). يُعدّ السبب الأصلي الكامن وراء تقديم اللائحة التي أفضت إلى نشأة الحزب الشيوعي الفرنسي. وصل إلى البريزيدوم في موسكو (رئاسة المجلس الأعلى للسوفيات). لكنه أُقصي من هذا المجلس ومن الحزب الشيوعي الفرنسي في العام 1924 لأنه تحيز إلى جانب تروتسكي. أسس العدد من المجلات وألّف كتاباً عن ستالين. (المعرّب)

باراديغما تعني أيضاً - أكثر من الأمس - استخدامات متنوعة لماركس وتهجينات غير متوقعة، وآلاف التنسيقات الممكنة بين هذا التفكير وتنسيقات أخرى نظرية - عملية. وتشهد أعمال زيزيك بالذات منذ التجربة التاريخية الخاصة ل"الاشتراكية المطبّقة في الواقع" بأن "شيوعيةً لليسار" جديدة تميل اليوم إلى أن تحلّ في محلّ الدوكسا doxa الماركسية وفي محلّ جميع المباحث الماركسية marxologies في العالم.

لكن ثمة ما هو أفضل للاحتراز من هذا السلوفاني العجيب. ألم يكن في الواقع مع بعض الأشخاص من المكونين الأصليين في السبعينات لطليعة فكرية مناصرة لمذهب لاكان المجدّد؟ لقد قدم زيزيك إلى فرنسا في بداية الثمانينيات للتدريس والاشتغال على تفكير جاك لاكان، وهي تجربة جامعية للغاية بلا ريب ولهذا، ستفضي إلى كتاب أول le plus sublime des hystériques, Hegel passé (1988) وإذا وُجد تقليد نقدي ماركسي - فرويدي (رايش وفروم ومدرسة فرنكفورت التي تبلغ أوجها مع ماركوز، ومع ليوتار كذلك وكاستورياديس وغتّاري في فرنسا) مما يمثله زيزيك اليوم أحس تمثيل، فإن الصراع الطبقي والتحليل النفسي غالباً كانا يتوافقان - بالرغم من ذلك - ابتداءً من السبعينات. بينما تتمثل المصلحة العامة للفرويدية - الماركسية (أو للماركسية - الفرويدية مثلما شئتم..) في منح خاصية أصلية للنشاط وللجنسانية في التاريخ البشري وللإنتاج وللتكاثر في المجموعة البشرية بصورة ذاتية.

ولكن إذا اهتم زيزيك بالإضافة إلى ذلك بفكر لاكان (أقل من اهتمامه بالتطبيق، بل أقل كذلك من اهتمامه بمن يدّعون

الانتساب إلى لاكان، ألم يسبق له في الواقع أن اكتشف عن قرب مخاصمات مشابهة حول الإرث بين الماركسيين؟) فذلك يعني أن هذا الفكر يمثل ترياقاً حقيقياً وبارداً وحاسماً أحياناً بالنسبة إلى ما يبدو - في الفكر السائد في فرنسا في السبعينات - إنه رومانسية مُحدثة خفيّة، هي في صميم ما يُسمى ما بعد الحداثة post-modernisme أي بعبارة أخرى الباتوس pathos (الهوى) المزمن للحداثة modernité.

بعد سنة 1968، حدث بالفعل كل شيء كما لو أن جزءاً كبيراً من النظرية النقدية كان يتحاشى انعكاسات الحدث المخيبة للأمل بالتدريج، سواء من خلال استثارة جاذبية الغريزة الجنسية، أي إلهة الليبيدو، أو من خلال الرثاء للإبادة المتوقعة لكل تمرد عن طريق النسق، في انتظار الكارثة. نذكر على سبيل المثال وبشكل سريع ديلوز وليوتار وغتّاري وفانيغيم من ناحية وديبور ومن لا يزال يستند إليهم من ناحية أخرى. مع ملاحظه في معرض الحديث، أن الموقفين ليس فيهما أي وجه من وجوه التناقض بالضرورة. كما أن من السهل، بل من المفضّل - لو أردنا النجاح في هذا العمل - المراوحة بين الناحيتين. هناك شكلان للرومانسية، الشكل الأول قديم والشكل الآخر جديد، الأول ما قبل - حديث والآخر ما بعد - حديث، وهما شكلان متضامنان ضدّ التاريخ: إذا كان المرء يغنّي الرغبة أو العدم والحياة أو الدمار والحب والمتعة أو الحرب الأهلية، فإن نفس التيولوجيا في الأصل هي التي تعبّر عن نفسها في جانبها الإيجابي وجانبها السلبي.

إن المزاوجة بين ماركس ولاكان، مثلما يفعل ذلك زيزيك في أعماله، تعني إذن السعي إلى معارضة نوع من الدين الطبيعي، ومعارضة المادية التبسيطية والمسحورة التي تفرض نفسها سراً داخل النقد الاجتماعي للعشريات الثلاث الأخيرة، بل دون علم مؤسسيه أحياناً. بل إن الأمر يعني كذلك التخلص بشراسة من الأنسية humanism التي تواصل حتى بعد القرن العشرين نخر الفكر كلّه - من ضمنه الماركسية الغربية - بغنغرينة المثالية. يتيح لاكان في الواقع إمكانية التأمل في شأن الذات sujet دون الانطلاق من الإنسان، وكذلك إمكانية التأمل في شان الليبيدو مع وضع انقطاعاته في الاعتبار. ويعني طرح فرضية اللاشعور أن الذات، الموصوفة بأنها أخلاقية (إتيكية). أي الموصوفة بأنها عقلية ليست (ولايمكنها) أن تكون معطى من معطيات التجربة المعيشة، ولا جوهراً مادياً ولا علّة أولية. والأمر نفسه ينطبق على الرغبة. وقد ترجم لاكان الإيعاز الشهير لفرويد " wo Es war, soll Ich warden" الذي يلخص في سطر واحد طموح تجربة التحليل النفسي في الجملة التالية "هناك حيث كان الأمر قائماً، عليّ أن أتحقق بوصفي ذاتاً***". ذلك هو دائماً - بعد نهاية الشيوعية "الواقعية" مشكل الحركة التاريخية، أي المشكل المتعلق بما يسميه ماركس بالبروليتاريا، الذي لم ينقطع عن التحقق بوصفه ذاتاً. ومن هنا فإن التحالف العجيب الذي عقده زيزيك بين أفكار ماركس ولاكان يسمح بالتأمل في شان ضرورة شيوعية قادمة وإمكانيتها.

*** Jacques Lacan, "La science et la vérité", Ecrits II, Paris, Le Seuil, 1999 (1966), P. 344.

مقطع من كتاب زيزيك

بصفة عامة، إن أول ردّ فعل بالنسبة إلى القارئ المعاصر "الليبرالي"[55] والمستنير، على بيان الحزب الشيوعي، هو اعتبار هذا النص بكل بساطة زائفاً من وجهة نظر اختبارية بالرجوع إلى اللوحة التي يقدّمها عن الوضعية الاجتماعية، وكذلك عن المنظور الثوري الذي يدافع عنه وينشره. هل سبق وأن وُجد بالفعل بيان سياسي سيدحضه بهذا القدر من الوضوح الواقعُ التاريخي اللاحق؟ وعلى الأرجح، ألاّ يمثل بيان الحزب الشيوعي تعميماً مفرطاً للنزاعات البارزة في القرن التاسع عشر؟

إذا تناولنا البيان بدلاً من ذلك، في الاتجاه المعاكس؟ أين نعيش اليوم؟ في أي مجتمع معولم و"ما بعد..." - ما بعد حداثي وما بعد صناعي؟ بينما يسيطر هذا الخطاب حول "العولمة" أكثر فأكثر، ولا تعدو أن تكون هذه الأخيرة الغرض الوحشي لسوق عالمية موحّدة تهدّد كل التقاليد الثقافية المحلية، بما فيها شكل

[55] توجد كلمة "ليبرالي" هنا بين هلالين لأنها تقصد المعنى الأنكلوسكسوني: فهي لا تدل على أكثر المدافعين المتحمسين لليبرالية الاقتصادية والسياسية بل على اليسار الديمقراطي والمؤسسي في الولايات المتحدة. (المترجم الفرنسي)

الدولة القومية نفسه. يبدو أن التوصيف الذي نجده في البيان بخصوص الدور الاجتماعي للبرجوازية لم يسبق أن كان بمثل هذه الواقعية:

"إن البورجوازية لا يمكن أن تعيش من دون التثوير المستمر لأدوات الإنتاج، وبالتالي لعلاقات الإنتاج، أي لمجمل العلاقات الاجتماعية. وعلى العكس من ذلك فإن إبقاء نمط الإنتاج القديم دون تغيير كان بالنسبة إلى جميع الطبقات الصناعية السالفة يمثل الشرط الأول لبقائها. فهذا الانقلاب المتتابع في الإنتاج، وهذا التزعزع الدائم لكل العلاقات الاجتماعية، وهذا التحرك والشعور بعدم الاطمئنان المستمران، هو ما يميّز عهد البرجوازية عن كل العهود السابقة. إن كل العلاقات الاجتماعية الجامدة والتي علاها الصدّأ وما يواكبها من تصوّرات وأفكار قديمة موقّرة تصير إلى الاضمحلال، والعلاقات المقامة حديثاً تشيخ قبل أن ييبس عودها. وكل ما كان له ثبات واستقرار يتبدّد كالدخان، وكل ما كان مقدّساً تُنتهك حرمته، ويضطر الناس في النهاية إلى مجابهة ظروف معيشتهم وعلاقاتهم المتبادلة بعيون لا تغشاها الأوهام.

"تنطلق البورجوازية نحو جميع أنحاء الكرة الأرضية تدفعها الحاجة الدائمة إلى أسواق جديدة. إن عليها التغلغل في كل مكان والاستثمار في كل مكان. وإقامة الصلات في كل مكان.

"وباستثمار السوق العالمية تُعطي البرجوازية لإنتاج كافة البلدان واستهلاكها صبغة كونية، وتجرد الصناعة من أساسها

الوطني، بين يأس الرجعيين وقنوطهم، فتتحطم الصناعات الوطنية التقليدية القديمة وما تزال تتحطم، لتحلّ محلّها صناعات حديثة أصبحت إقامتها مسألة حياة أو موت بالنسبة لكل الأمم المتحدة، ولم تعد تستعمل المواد الأولية المحلية، بل مواد أولية قادمة من أبعد المناطق، ولا تستهلك منتجاتها داخل البلد نفسه فحسب، بل وفي جميع أنحاء العالم. وبدلاً من الحاجات القديمة التي كان يلبيها الإنتاج القومي نشأت حاجات جديدة يتطلّب تسديدها منتجات الأقطار والمناخات الأكثر بعداً. وعوض الانعزال الذي كانت تعيش فيه المناطق والبلدان مكتفية بذاتها، تنمو علاقات عالمية وتقوم بين الأمم علاقات متبادلة. ولا يقلّ الإنتاج الفكري شأناً عمّا يقال في خصوص الإنتاج المادي. فالأعمال الفكرية لأمةٍ ما تصبح ملكاً مشتركاً لجميع الأمم. ويصبح التقوقع والانغلاق القوميان أمراً مستحيلاً يوماً بعد يوم. ومن تعدّد الأدبيات القومية والمحلية ينشأ أدب عالمي"[56].

فالأمر يتعلق بالتأكيد بواقعنا، على أن تنضمّ بالمقابل إلى هذه الصورة للبيان نقيضته الديالكتيكية الجوهرية، أي عملية إضفاء الصفة الروحية "spiritualization" على السيرورة المادية للإنتاج نفسها. فمن جهة تنتج عن الرأسمالية عملية إخضاع للحياة الاجتماعية للصفة الدنيوية بصورة جذرية - إذ

---

[56] كارل ماركس وفريديريك أنغلس، البيان الشيوعي (1848)، ضمن الأعمال الكاملة، باريس، غاليمار - ط. 1963/ واعتمدنا هنا نص الترجمة الذي قدم له حمّه الهمامي، تونس - فيفري، شباط 1986. الصفحات 16 - 17 - 18.

تمزّق الرأسمالية كل الهالة التي تحيط بـ "الأصالة" والنبالة والمقدّس والشرف. إلخ.

"وأغرقت الحميّة الدينية والحماسة الفروسية وعاطفية البرجوازية الصغيرة في المياه الجليدية للحساب الأناني، وجعلت من كرامة الفرد مجرّد قيمة تبادلية، وأحلّت محلّ الحريات العديدة التي كان ثمن افتكاكها جدّ غال حريةً وحيدة هي حرية التجارة التي لا ترحم. وباختصار عوّضت الاستغلال المتسترّ وراء الأوهام الدينية والسياسية بآخر مكشوف، وقح، مباشر، فظّ"[57].

لكن من جهة ثانية يتمثل الدرس الأساسي الذي يقدمه "نقد الاقتصاد السياسي" الذي وضعه ماركس الأكثر نضجاً في السنوات التالية للبيان في أن اختزال كل وهم عجيب إلى واقع اقتصادي فظ، يفرز بدوره ملحمية spectralité خاصة. عندما يصف ماركس النمو الجنوني لانتقال رأس المال الذي يبلغ سباقه الأوحدي course solipsiste المتوالد ذاتياً بلا نهاية، ذروته عبر المضاربة الميتا تأملية الراهنة بشأن العقود المحدّدة الآجال futures [58]، يكون من المبالغ جداً في التبسيط مؤاخذته

---

[57] المرجع نفسه. ص 15 و16.

[58] Les futures تعني هذه الكلمة نوعاً من المستندات المالية، وهي عقود شراء أو بيع محدّدة الآجل، ظهر في نهاية القرن التاسع عشر في الأسواق وتطور في شكل عقود تسمى options أو معاملات أخرى بالتأجيل تُعرف ب swaps في الثمانينيات، في أسواق العملة ونسب الفائدة. عن طريق هذه العقود، يلتزم المضاربون بشراء أو بيع كمية معينة من الأملاك (الأصول) حسب تاريخ وسعر محدّدين مسبقاً: ويمكنهم بذلك أن يستفيدوا أو أن يحتموا من تقلبات الأسعار. فمن المفروض إذن أن قيمة عقد محدد الأجل future تعكس توقّعات الفاعلين في السوق على قيمة المستند الذي تمثّله. ولذلك فإن سوق العقود المحددة الآجال هو سوق مشتق dérivé أو من الدرجة الثانية. وموضوعه هو تقدير التقديرات. (المترجم الفرنسي).

على أن شبح هذا الوحش المخصّب ذاتياً الذي يواصل هذا السباق بالرغم من كل انشغال يتعلق بالإنسان أو بالبيئة، ليس سوى تجريد إيديولوجي. ذلك إنه لا يجب أن ننسى أبداً أن وراء ذلك التجريد يوجد أشخاص حقيقيون وموجودات طبيعية - أي القوى المنتجة والموارد - تمثل قاعدة انتقال رأس المال. ويتغذى هذا الأخير انطلاقاً منها مثل كائن طفيلي ضخم. هذا "التجريد" لا يطابق إدراكاً حسياً خاطئاً فحسب - أي إدراك المضارب المالي - بالنسبة إلى الواقع الاجتماعي. فهو تجريد "واقعي" بقدر ما يحدّد بنية العمليات الاجتماعية والمادية نفسها. يمكن أن تتحكم في مصير طبقات كاملة من السكان ومصير بلدان كاملة أحياناً رقصة مضاربية وأوحدية لرأس المال، وهو يتابع أهدافه الخاصة بالمردودية في سياق من اللامبالاة السعيدة بنتائج فعاليته في الواقع الاجتماعي.

هنا يتموضع العنف النسقي الأساسي للرأسمالية، وهو عنف أغرب من العنف الاجتماعي والإيديولوجي المباشر قبل - الرأسمالي. ولا يُعزى هذا العنف إلى أفراد واقعيين وإلى نواياهم "السيئة". وهو عنف "موضوعي" ونسقي ولا مسمّى بصورة محضة. وقد ميّز إتيين باليبار Etienne Balibar بين شكلين متضادين ومتكاملين في الوقت نفسه للعنف المفرط في العالم المعاصر،[59] هما العنف (البنيوي) violence ultra-objective "فائق - الموضوعية"

[59] إتيان باليبار "العنف: المثالية والقساوة"

"La violence: idealité et cruauté", dans La Crainte des masses, Paris, Galilée, 1997

الخاص بالشروط الاجتماعية للرأسمالية العالمية (البروز الأوتوماتيكي للأفراد المقصيين والزائدين عن الحاجة والأفراد المحرومين من مسكن قار SDF والمعطلين)؛ والعنف "فائق الذاتية" لدى الأصوليات" الأثنية و/ أو الدينية (وبكلمة واحدة العنصرية) التي برزت حديثاً - باعتبار أن هذا النوع من العنف "المفرط" و"فاقد التبرير" مجرّد مقابل للعنف من النوع الأول.

ويسمح كذلك هذا النوع الأخير من العنف "غير المسمى" بتقديم طرح أعم بخصوص مقاومة الشيوعية. فمتعة الاستدلال المقاومة للشيوعية تعلّقت في الواقع بحقيقة أن الشيوعية نفسها قد يسرّت كثيراً لعبة المُذنِب. ليجد - ومن ثم ليدين - الحزب وستالين ولينين وأخيراً ماركس نفسه، باعتبارهم مسؤولين عن ملايين الموتى وعن الرعب وعن الغولاغ[60]، بينما لا يوجد في الرأسمالية شخص يوجد له الخطأ، أو شخص يكون مسؤولاً: فقد حدثت الأمور هكذا ببساطة، من خلال إواليات غير مسماة. حتى لو لم تكن الرأسمالية أقل تهديماً، ولم تسبب تكاليف بشرية وبيئية أقل، عن طريق القضاء على الزراعات المحلية على سبيل المثال... فالفرق بين الرأسمالية والشيوعية يتعلق إذن بحقيقة أن الشيوعية قد تم إدراكها بوصفها فكرة فشل تحقيقها فيما بعد، في حين أن الرأسمالية تكون قد أدت دورها "تلقائياً". إذْ لا وجود لبيان رأسمالي.

---

60 golag معسكر للأشغال الشاقة، أصبح رمزاً للقمع في الاتحاد السوفييتي سابقاً (المترجم).

منطق الرأسمالية يؤدي إلى تقييد الحريات

حوار أجرته روزا موساوي

تحتل أعمال الفيلسوف سلافوي زيزيك موقعاً مركزياً في السجالات التي تحاول في عصر العولمة الرأسمالية أن تعيد تحديد الضوابط الخاصة بسياسة تحررية حقيقية.

- أنت تعتقد أن نتيجة الاستفتاء الفرنسي حول الدستور الأوروبي إيجابية باعتبار أنها تعبّر عن "حرية الاختيار نفسه"، إزاء مساومة تقوم بها نخبة جديدة تعرض علينا فقط إمكانية تأكيد معرفتها المختصة savoir expert" فكيف تحوّل المشروع السياسي الأوروبي إلى أداة لمصادرة الاختيارات؟

- إن الضغط المؤثر في الخيارات شديد إلى حدّ لا يُصدق في إطار ما يسمّى بحيّز ما بعد - الإيديولوجيا. والأطروحة هي إمكان وجود إيديولوجيا عليا تتمثل في القول "بانعدام وجود إيديولوجيا!". أي

"انعدام وجود اختيار آخر غير قواعد الرأسمالية المعاصرة". إن المسائل الوحيدة التي تبقى إذن قابلة للتشاور تتعلق بالتسامح وبالتعدد الثقافي multiculturalisme. لا يمكن أن يوجد في العالم الراهن سوى اختيار واحد كبير وهو الرأسمالية على الطريقة الأمريكية"، حسب النموذج الليبرالي، أو الرأسمالية الصينية. سيكون من المحزن جداً العيش في عالم ينحصر فيه الاختيار الوحيد في مثل هذا الخيار.

- كيف يمكن لأوروبا أن تصبح ذلك الفضاء السياسي للخيار الذي ترجوه أنت في مواجهة النموذج الأممي (نسبة إلى الأمم المتحدة) أو الصيني، بما أن العالم الثالث ليس قادراً - كما تقول - على مقاومة "إيديولوجيا الحلم الأمريكي" American dream؟

- إنني في الواقع متشائم: أعتقد أن ثمة نوعاً من التواطؤ بين الولايات المتحدة والعالم الثالث. توجد بين هذين القطبين علاقة تكامل. والمشكلة بالنسبة للنظام الجديد لا تتمثل في العالم الثالث، بل في العالم الثاني، أي أوروبا. تنعدم الإمكانيات حقاً في العالم الثالث بسبب البنية الاجتماعية العينية. فالاستغلال والفقر في تلك البلدان وحشيان جداً، ولا أمل يلوح من هذا الجانب. ويقدم ماركس في هذا السياق حكمته القديمة: لا أعتقد للأسف بقدرة المعوز حقاً على القيام بالثورة.

- كيف يمكن التخلص إذن - على صعيد السياسة - من الرأسمالية العالمية ومن الديموقراطية الليبرالية؟

- لا أعتقد بأنه يمكن الاقتصار على الرجوع إلى شعارات كبرى مثل راية "النموذج الاجتماعي الأوروبي" أو راية "التضامن". ستهيمن الليبرالية البدائية في الولايات المتحدة، بينما سيتعلق الأمر في أوروبا بالحالة الاجتماعية.. وليست الأشياء بمثل هذه السهولة. والصعوبات الأخيرة مثل الفورات الشعبية التي هزت الضواحي الفرنسية هي بمثابة رسالة إنذار ورد فعل أولي على غطرسة أوروبا تجاه الفورات التي أعقبت ما حدث في كاترينا في منطقة نيو أورليانز. أعتقد أن انفجار هذه الموجة من العنف هي من الأعراض العامة للرأسمالية المعاصرة. إن الجواب التقليدي المتمثل في المناداة بأكبر عدد من البرامج الاجتماعية، وبأكبر قدر من التضامن لم يعد كافياً، فجذور المرض بعيدة الفور.

- **وأين تكمن هذه الجذور؟**

- إن منطق الرأسمالية المعاصرة ككلّ هو الذي يشكّل موضوع خلاف. ولنتأمل هذا المثال: إذا كانت توجد ظاهرة عالمية مميّزة لهذا العصر، فهي ظاهرة مدن الصفيح. ومثلما يؤكد على ذلك عالم اجتماع ناقد للوسط المديني هو مايك دافيس[61]، هناك ميل إلى إخفاء الجانب الآخر للنجاح الاقتصادي في الصين وسنغفورة وكوريا الجنوبية، وهو انفجار مدن الصفيح. فحسب بعض التقديرات، قد يصل اليوم عدد الذين يسكنون مدن الصفيح إلى أكثر من مليار نسمة. وسيصبح سكان هذه المدن أهم مجموعة اجتماعية على المستوى العالمي. ويمكن أن يشير المرء

---

[61] Mike Davis, Planéte Bidonvilles, Ab Iraten, 2005.

تلقائياً إلى المساكن الشعبية في البرازيلfavelas، لكن الأمر لا يتعلق بذلك فحسب. تقع أكبر منطقة من مدن الصفيح في إفريقيا الوسطى، بين لاغوس والكوت ديفورا: سبعون مليون شخص يسكنون هناك في مدن صفيحية.

يشبه هؤلاء السكان "الرجل الملعون" لأغامبين: فهم مقصيون من النظام المدني العمومي، لكنهم مدمجون تقريباً في الاقتصاد، عن طريق العمل في السرّ والتجارة غير المشروعة.. وربما يتعلق الأمر هنا - إذا استعملنا مصطلحات ماركسية - ببروليتاريا جديدة هي بروليتاريا ثورية بصورتها الأوّلية Proto-révolutiomnaire. توجد هنا مجموعات كبيرة وجموع ضخمة لا يستقر بها الأمر عند تقليد معيّن، وهي تفتقر إلى تراتبية متوارثة لتنظيم فضائها الاجتماعي. هؤلاء هم بالذات المقصيون الحقيقيون، ولا يتجه نظر الدولة حتى إلى مراقبتهم بل فقط إلى عزلهم. وقد شرع منطق هذا التمييز العنصري ينتشر في مجتمعاتنا.

لا يمكن على الأرجح فهم هذا المنطق وفق التعبير الخاص ب "الطبقات" بالمعنى الماركسي. غير أن من الممكن التمييز بين ثلاث مجموعات كبرى. فمن جهة هناك الطبقة الجديدة الرمزية الكونية. وهي طبقة مديري الأعمال managers والصحفيين والأساتذة والخبراء. وينتمي هؤلاء إلى طبقة عالمية جديدة، تكون فيها علاقات الأفراد مع أمثالهم في الطرف الآخر من العالم أوسع من تلك التي تربطهم بأناس "عاديين" حيث يقيمون. إنهم يشكلون على المستوى الثقافي مجتمعاً

مستقلاً. وفي أسفل السلّم يوجد المقصيون والفقراء في الضواحي. وبين الطبقتين توجد الطبقة الوسطى، أي طبقة العمال. وهي طبقة في طريقها للانقراض تقريباً، ممّا يفسر حساسيتها "التقليدوية".

- نعود إلى فورات فرنسا، فأنت تقارنها بما حدث في ماي 68. ولكن بخلاف ما ساد في العام 1968، وقد شكّل حسب قولك "حلما طوباويا"، لا وجود هنا لبرنامج ولا إيديولوجيا أو حلم طوباوي. فهل يتعلق الأمر بانفجار "ما بعد - سياسي"؟

- نعم، إنه "ما بعد - سياسي" لأن هذه الفورات كانت الجانب الآخر الصارم من مجتمعنا الما بعد سياسي. فعندما تُلعب ورقة الما بعد - سياسي، تصبح الفورات نفسها ما بعد - سياسية. تلك هي المأساة الحقيقية، وهي الثمن الذي يُدفع نظراً لاستحالة صياغة خيار من الخيارات على الأقل.

- هل تعتقد أن فشل وانهيار الشيوعية قد ساهما في القضاء على هذه الإمكانية لولادة الخيار؟ هل هذه الإمكانية مستبعدة نهائياً؟

- من المستحيل بالنسبة لنا اليوم تأمّل هذا الخيار. لكنني أعتقد مع ذلك أننا قريبون من انفجار ما، إن اليوطوبيا الحقيقية لدى لينين مرتبطة بالحالة المستعجلة. والمرء يصبح طوباوياً في اللحظة التي يتعذّر عليه التصرف بوجه آخر. وأعتقد - بهذا المعنى - أننا سنكون ملزمين أكثر فأكثر باليوطوبيا.

كانت فترة لينين الطوباوية قبل ثورة أكتوبر وبعدها بالضبط ثمرة وضع ميؤوس منه تماماً. وقد يكون رد فعل من هذا القبيل

مرتبطاً بحقيقة أن حقل الاختيارات "الواقعية" ليس "واقعياً"، بمعنى أنه مطابق لحيّز الإيديولوجيا المهيمنة. ما الذي نستطيع عمله اليوم؟ يلتفت اليسار نفسه إلى المسائل الثقافية وإلى التسامح.. من فرط هيمنة الإيديولوجيا الرأسمالية، ممّا يعني في الواقع أنه لا يجرؤ حتى على تصور خيار اقتصادي ملموس. لذلك فإن الأطروحة الضمنية لليسار الأمريكي المؤمن بالتعدد الثقافي هي أن استغلال المكسيكيين والسود قد يكون قائماً على العنصرية وليس على علاقات طبقية.

- أنت تدقّ ناقوس الخطر منبهاً لحالة الطوارئ العالمية الدائمة والمحافظ عليها منذ الحادي عشر من سبتمبر 2001 ولتقييد الحريات كتبرير لهذه الأحداث..

- لا يُنظر إلى حالة الطوارئ هذه بوصفها مقابلة للحالة العادية. بل هناك نوع من الالتقاء. إن المستقبل سيكون على هذه الصورة: لن تسود ديكتاتورية مباشرة، لكن سيكون هناك تغيير في القواعد، ستطابق فيه الحالة الاستثنائية الحالة العادية. وبشكل مواز، سيُحس أدنى تدخّل عنيف في الاقتصاد بوصفه لا عقلانياً وكارثياً. هناك نوع من العقد الذي قد تكون للاقتصاد وفقه قواعد خاصة غير مسيّسة، بما أن "السجال الديمقراطي" ينحصر في النهاية في المسائل الثقافية. وتكمن المأساة بالضبط في هذا اللاتسييس الجذري للاقتصاد، عندما يرافقه انزلاق نحو حالة استثنائية دائمة.

- أنت تبيّن أن هذه التطورات المرتبطة بالليبرالية الجديد تظهر من خلال تعزيز الدولة....

- توجد أشكال الإقصاء الجديدة والتميز العنصري على نفس المستوى مع الإيديولوجيا السائدة لإضفاء صفة الضحية victimization. ويؤكد ريشاد رورتي R. Rorty أحد فلاسفة الليبرالية المعاصرة أن ما يحدد اليوم الكرامة الإنسانية في نهاية التحليل ليس الذكاء ولا الصفة الإبداعية، بل أهلية التوجّع، وكون المرء ضحية، والإحساس بالألم. وعندما يتم التعرف بهذه الصورة على عملية إضفاء صفة الضحية باعتبارها شكلاً أساسياً، لا يعود السؤال كالتالي "كيف التنظّم؟" بل "كيف يجب على الدولة الوقاية من الألم؟". لذلك أعترض على الرأي المسبّق القائل بأن دور الدولة يتناقص. إن الدولة تنسحب حقاً من الدائرة الاجتماعية. لكن إذا ما أخذ المرء بعين الاعتبار الولايات المتحدة بعد الحادي عشر من سبتمبر، فإنه ما وُجدت قط في تاريخ الإنسانية دولة بمثل هذه القوة، حسب الميزانية العسكرية وميزانية المراقبة. إن الدولة تلعب داخل هذه المنظومة دوراً حاسماً حتماً. بل إن الليبرالية الأكثر وحشية تطلب الدولة أكثر فأكثر. ويشهد المرء في الواقع انفجاراً يلحق بجميع أجهزة الدولة. إن دولة المحافظين - الجدد المعاصرة دولة قوية إلى أبعد حدّ.

- في العالم الثنائي القطب، قدمت الرأسمالية نفسها بوصفها "واجهة العالم الحرّ" وجعلت نفسها مرغوباً فيها بسبب هذا الوعد بالحرية. فهل نتجه نحو رأسمالية ترفض

المساواة، وينتهي بها الأمر بالإضافة إلى ذلك إلى سحق الحريات؟

- إن عملية نقد الليبرالية من قبل ماركس أمر محايث. فهو يحلل الحقيقة المتمثلة في أن الرأسمالية هي التي فتحت للحرية فضاءً لا يمكنها الاضطلاع به. وسيقودها في المستقبل المنطق المرتبط بالرأسمالية إلى تقييد الحريات. ومع نهاية الشيوعية، بل كذلك نهاية الديمقراطية - الاجتماعية، فإن ما انطفأ هو الفكرة القائلة بإمكانية أن يغيّر الفعل الجماعي التاريخ. لقد عدنا إلى "مجتمع القدر" بما أن العولمة تُقدّم هنا بوصفها قدراً. ويمكن أن يُرفض هذا القدر، لكن الثمن الذي يجب دفعه إذن هو الإقصاء. بل إن الفكرة نفسها القائلة بأن الإنسانية بإمكانها التأثير في الحياة عن طريق ميثاق جماعي، هي فكرة مندد بها بوصفها كليانية ضمنياً. نُجاب: "وهل تريدون غولاغاً جديداً؟". من ناحيتي ليس لدى برنامج ولا مشروع أو "حل" بسيط. لليسار مسؤوليته الخاصة. وبوصفي فيلسوفاً، ليس من واجبي الأخلاقي - السياسي أن أعطي إجابات، بل أن أعيد صياغة أسئلة مخادعة وأن أكشف عما سماه آلان باديو Alain Badiou "موقع الأحداث" événementiel site، هناك حيث توجد إمكانية ما وقوة كامنة كي ينبثق شيء ما. وبهذا المعنى فإنني مجرد من كل يوطوبيا بشأن أوروبا، حتى لو وجدت مثل هذه الإرادة للتموقع خارج محور الولايات المتحدة - الصين الذي يرمز إلى جانبين ينتميان إلى النظام.

- على أي أساس يقوم نقدك لتحليل الرأسمالية الشاملة الذي أجراه طوني نيغري وميكيل هاردت في كتابهما الأمبراطورية Empire الذي اعتبرته مؤلفاً "سابقاً للماركسية" prémarxiste؟

- هاردت ونيغري هما في طريق مسدود. فمن جهة ستكون هناك امبراطورية المركزة empire centralisateur، ومن الجهة الأخرى الجمهور multilude. لكنهما مرغمان - للتعبير عن ذلك ببساطة - على الإقرار بأن الرأسمالية المعاصرة تؤدي دورها دوماً بحسب الجمهور وبطريقة شبكية résticulaire. وكل الكلمات التي يستعملانها للدلالة على الحركة الجديدة للجمهور اللامركزي والمتعدد والمترحل يمكن أن تنطبق على أداء الرأسمالية المعاصرة. وليس هذا غريباً حسب ما أعتقد على انزلاقات نيغري مؤخراً الذي يعتقد أنه يرى في أشكال الرأسمالية المعاصرة الأكثر تقدّما بذور الشيوعية. لن يتعلق الأمر إذن بمقاومتها بل على العكس، بمعاونتها وبالمساهمة - ولِمَ لا - في ديناميتها. سيكون هناك لدى نيغري نوع من الاحتفاء بهذه الرأسمالية.

- في كتابك ماذا تريد أوروبا Que veut l' Europe، تحلّل "الدور الذي يهيكل اليمين الشعبوي واليمين المتطرف من أجل أن يشرعن الهيمنة الديموقراطية الليبرالية - والإجماع حول نظام سياسي ثنائي القطب لا يوفّر الاختيار إلا ظاهرياً، ومن أجل أن يقيم حاجزاً أمام كل خيار لدى اليسار"..

- أعتقد أن من أحد أسباب قوة اليمين المتطرف هو تحفّظ اليسار في الرجوع المباشر من الآن فصاعداً إلى الطبقة العاملة.

إن اليسار يخجل تقريباً من الرجوع إلى الطبقة العاملة تاركاً لليمين المتطرف الاستناد إلى الشعب! وعندما يصنع ذلك فهو يحس بالحاجة إلى أن يبرّر نفسه عبر استعمال مراجع أقوامية références ethniques مثل: "المكسيكيون المساكين"، "المهاجرون"... وقد أصبح اليمين واليمين المتطرف هما اللذان يتحدثان وحدهما من الآن فصاعداً بلغة التعبئة السياسية.

أعتقد أن اليمين المتطرف يلعب دوراً هيكلياً ونوعياً. ما هو رد فعل أغلب "الديموقراطيين"؟ يقولون عن لوبان Le Pen بأنه ينقل أفكاراً غير مقبولة، "لكن...". وهذا أسلوب نفهم من خلاله أن لوبان يطرح "أسئلة حقيقية". وهو ما يسمح لهم بانتحال هذه الإشكالية المطروحة من قِبل لوبان. الوسط الليبرالي هو في الأصل حركة لوبان بوجهها الإنساني. يحتاج هذا اليمين إلى لوبان لإبراز الفوارق التي تفصله عن التجاوزات المربكة والظهور بمظهر اليمين المعتدل. لذلك تقزّزت من تلك اللحظات التي تم فيها التضامن ضد لوبان في الدور الثاني في العام 2002. فعندما يريد المرء أن يكون أكثر توجهاً إلى اليسار تقريباً، يتهم فوراً من الآن فصاعداً بأنه يلعب لعبة اليمين المتطرف، ليصنع من هذا الخطر الخيالي العدو الرسمي. وهذا في اعتقادي أحسن مثال على المعارضة المزيفة.

جريدة لومانيتي" 4 جانفي 2006

الفصل التاسع

سمير أمين

الإمبراطورية والجمهور

إمبراطورية ما بعد - الحداثة أم توسع جديد للإمبريالية؟

اختار مايكل هاردت وأنطونيو نيغري أن يطلقا على النظام الشامل اسم "الامبراطورية". والهدف من هذا المصطلح هو تمييز أهم خاصياتها عما يحدد "الامبريالية". وتقتصر الامبريالية ضمن هذا التصور على بعدها السياسي المحض، أي على حدود السلطة الشكلية لدولة تمتد إلى خارج حدودها، وفي ذلك خلط بين الامبريالية والكولونيالية. فالكولونيالية لم تعد إذن موجودة ولا حتى الامبريالية. هذا الإثبات الفارغ يستعيد الخطاب المسيطر في أمريكا (الشمالية) القائل بأن الولايات المتحدة - بخلاف الدول الأوروبية - لم تطمح أبداً إلى تشكيل امبراطورية استعمارية تخدم مصالحها الخاصة، ولم تستطيع أبداً أن تكون بالتالي "امبريالية" (وقد ذكّرنا بوش بأن الولايات المتحدة لم تكن ولن تصبح دولة امبريالية).

تقترح علينا تقاليد المادية التاريخية تحليلاً مختلفاً جداً للعالم الحديث يتمركز حول تحديد مستلزمات تراكم رأس المال، لا سيما في القطاعات المسيطرة. وعلى المستوى الشامل يسمح هذا التحليل باكتشاف الميكانيزمات التي تنتج استقطاب الثروات والسلطة، كما أنه ينشئ الاقتصاد السياسي للامبريالية.

هاردت ونيغري يتجاهلان بدقةٍ كل التحليلات التي أجراها بهذا الشأن ماركسيون أو مدارس أخرى للاقتصاد السياسي. وهما يستعيدان - بالمقابل - شرعوية légalisme موريس دو فيرجي أو علم السياسة المتداول في التجريبية الأنجلوسكسونية. لذلك تصبح "الامبريالية" خاصية عامة تشترك فيها عبر الزمان والمكان عدة "امبراطوريات"، مثل الامبراطورية الرومانية والامبراطورية العثمانية والكولونيالية البريطانية أو الفرنسية والامبراطورية الاسترالية - المجرية والروسية والسوفييتية. إن سقوط هذه الامبراطوريات المحتوم مرتبط ب"أسباب مشابهة". وهو أمر أقرب للصحافة السطحية منه لكل تحليل للتاريخ، فهما ينضمان في الواقع إلى الدرجة الراهنة (بعد سقوط جدار برلين).

لا يوجد أدنى شك في أن تطور الرأسمالية والنظام العالمي خلال العقدين الأخيرين قد أديا إلى تحولات كيفية متنوعة. لكن الانضمام إلى الخطاب السائد الذي ستُنتج - بحسبه - الثورة "العلمية والتكونولوجية" نفسها أشكالاً تنظيمية اقتصادية وسياسية للكوكب، ستتجاوز تلك الأشكال التي كانت تقترن بالدفاع عن "المصالح القومية"، كل هذا أمر مختلف تماماً؛ بل

إن ذلك التطور سيُعدّ بالإضافة إلى ذلك "إيجابياً"، وهذا الخطاب قائم على تبسيطات خطرة. فأهم قطاعات الرأسمالية تعمل في الواقع في الحيز المتعدي الجنسية transnational للرأسمالية، لكن مراقبة هذه القطاعات تظل بين أيدي الجماعات المالية "القومية" بدرجة أكبر، أي القائمة في الولايات المتحدة وبريطانيا أو ألمانيا، وليست هي قائمة بعد في "أوروبا" غير موجودة بهذا المعنى على هذا المستوى. ثم إن إعادة إنتاج النظام - اقتصادياً - اليوم مثلما كان ذلك بالأمس أمر غير وارد دون تنظيم مواز "للسياسات" التي تتحكم في تطوراته. فالاقتصاد الرأسمالي لا يوجد دون "دولة" ما عدا في الترجمة الإيديولوجية الخاوية لليبرالية. لم يوجد بعد مفهوم الدولة - "العالم" المتعدية الجنسية. والسؤال الحقيقي الذي تم تجاهله من جانب الخطاب المسيطر على العولمة يتمثل في التناقضات بين منطق التراكم المعولم في القطاعات المسيطرة (الاحتكارات) للرأسمالية المركزية ومنطق إدارة "سياسات" النظام.

إن هذا النظام الذي يقدّمه هاردت ونيغري تحت هذا الاسم المستطرف "الامبراطورية" ينبع إذن من التصور الساذج للعولمة الذي ينادي به الخطاب المهيمن. وحسب هذا التصور فإن تعدي حدود الجنسيات transnationalisation قد قوّض الامبريالية (ونزاعاتها) ليعوّضها بنظام يوجد مركزه في كل مكان ولا يوجد في أي مكان، والمزدوج مركز / تخوم (الذي يحدد العلاقة الامبريالية) قد تم "تجاوزه". يستعيد هاردت ونيغري هنا أكثر الخطابات

ابتذالاً: أي بما أنه يوجد "عالم أول" "غني" داخل "العالم الثالث" و"عالم ثالث" "فقير" في العالم الأول، فإنه لا يوجد أي مبرر لمقابلة العالم الأوّل بالعالم الثالث. توجد بالتأكيد في الهند هند فقيرة وهند غنية. والأمر نفسه حاصل في الولايات المتحدة، بما أننا نعيش في مجتمعات منقسمة إلى طبقات ومندمجة في الرأسمالية العالمية. فهل يعني ذلك أن التشكيلات الاجتماعية متماثلة في الهند وفي الولايات المتحدة؟ وهل التمييز بين الدور الفاعل للبعض في صنع العالم والدور غير الفاعل للبعض الآخر الذي لا يمكنه سوى "التوافق" مع متطلبات النظام الشامل، فاقد لأي معنى؟ إن هذا التمييز اليوم مهم في الواقع أكثر من أي وقت مضى. وفي الأزمنة الأولى من التاريخ المعاصر (1945 - 1980) أدت طبيعة موازين القوى بين الدول الامبريالية والدول الخاضعة إلى حقيقة أن تكون "تنمية" التخوم موضع اهتمام، كما استطاعت هذه الأخيرة أن تتموقع ضمن العناصر الفاعلة في تغيير العالم. أما اليوم فقد تغيرت كثيراً هذه العلاقات لصالح رأس المال المسيطر. فقد زال الخطاب حول التنمية وعوِّض بالخطاب حول "التوافق". وبعبارة أخرى فإن النظام العالمي الراهن (أي الامبراطورية) ليس أقل امبريالية، بل هو أكثر امبريالية من سابقيه!

لو أن هاردت ونيغري سجلا على الأقل ما كتبه ممثلو رأس المال المسيطر لتأكّدا بنفسيهما من المسألة. ورغم أن الأمر يبدو مستغرباً، فإنهما لم يصنعا ذلك على الإطلاق. وبالفعل فإن معظم

قطاعات الاستبدشمنت establishment (أي أجهزة النظام القائم) (باعتبار الديموقراطيين والجمهوريين) لا يخفون أهدافهم ومخططاتهم المتمثلة في الاستئثار بالموارد الطبيعية للكوكب، حتى يتم الحفاظ على نمط المعيشة الباهظ الثمن، وذلك على حساب شعوب أخرى، وفي منع كل قوة متوسطة أو متفوقة من أن تصبح منافساً قادراً على الصمود أمام أوامر واشنطن، وفي بلوغ هذه الأهداف عن طريق المراقبة العسكرية للكوكب.

بما أن "القومية" و"الشيوعية" قد انهزمتا نهائياً، فإن هاردت ونيغري اقتصرا على استعادة الخطاب المسيطر القائل بأن العودة إلى ليبرالية معولمة تمثل تقدماً موضوعياً. و"مظاهر عجز" النظام إن وجدت لا يمكن إصلاحها إلاّ داخل منطق النظام نفسه وليس من خلال محاربته. من السهل إذن أن يفهم المرء سبب التحاق نيغري بصفوف أوروبا المناصرة للحلف الأطلسي الشمالي ومناداته بدعم مشروعه لإنشاء دستور فائق الليبرالية مطابق لما تتمناه واشنطن. غير أن التاريخ الحقيقي لا "قومية" ولا "شيوعية" ليس له أي علاقة بما تقول عنه البروباغندا الليبرالية. فالتحولات الاجتماعية التي غذّتها القومية والشيوعية خلال ثلاثة عقود من إدارة دولة الرعاية في إطار الديموقراطيات الاجتماعية الغربية، وفي بلدان الاشتراكية المطبقة في الواقع، وفي تجارب الأنظمة الشعبوية الوطنية الراديكالية في العالم الثالث، قد أرغمت رأس المال على التطابق مع المطالب الاجتماعية الناجمة عن منطق سيطرته الخاصة، وذلك ما جعل طموحات

الامبريالية تتراجع. لقد كانت هذه التحولات مهمة وإيجابية جداً بالرغم من الحدود التي فرضها الطابع المفتقر إلى الراديكالية على المشاريع المعنية بالأمر. إن العودة (الوقتية) لليبرالية الممكنة بسبب تآكل وسقوط هذه المشاريع للحقبة السابقة من التاريخ المعاصر، ليست "خطوة إلى الأمام" بل هي حدّ محتوم.

لا يمكن صياغة المسائل الحقيقية اليوم إلا إذا تم التخلّي عن الخطاب الليبرالي لهاردت ونيغري. ثمة أطروحات مهمة ومتنوعة حول هذه المسائل، يندرج بعضها ضمن منظور تجديد المادية التاريخية، وهي أطروحات يجهلها هاردت ونيغري. وأريد أن أذكّر هنا بالخطوط الكبرى للأطروحات التي قدّمتها حول الموضوع. لقد ظهرت الامبريالية في الماضي بوصفها صراعاً دائماً بين السلطات الامبريالية (في صيغة الجمع). ويقتضي التمركز المتنامي لرأس المال التابع لاحتكار الأقلية capital oligopolistique انبثاق الامبريالية "الجماعية" اليوم، ويمثلها الثالوث (أي الولايات المتحدة وأوروبا واليابان). إن لقطاعات رأس المال المسيطرة مصالح مشتركة في التصرف في فوائدها داخل هذا النظام الامبريالي الجديد. وباستثناء الإدارة السياسية الموحّدة فإن هذا النظام يصطدم بتعددية الدول. إن التناقضات داخل الثالوث لا تتولد عن تضارب المصالح ضمن رؤوس الأموال المسيطرة التابعة لاحتكار الأقلية، بل عن تنوع المصالح التي تمثلها الدول. وقد لخصت هذا التناقض في جملة واحدة وهي أن الاقتصاد يوحّد الأطراف المشاركة في النظام الامبريالي فيما تفرّق السياسة بين تلك البلدان.

"الجمهور" والديمقراطية المتشكلة أو إعادة إنتاج هيمنة رأس المال؟

إن الإيديولوجيا الليبرالية الخاصة بالرأسمالية تضع الفرد فوق كل شيء. وليس من المهم إن كان على الفرد المعني بالأمر - طوال فترة البناء التاريخي للإيديولوجيا الليبرالية، خلال عصر الأنوار - أن يكون مالكاً متعلماً وبالتالي برجوازياً قادراً على استخدام عقله. فقد كانت تلك خطوة تحررية حاسمة. وباعتبار أن الاشتراكية حركة تتجاوز الرأسمالية، فإنها لا يمكن تصورها بصفتها عودة إلى الماضي ونفياً للفرد. ليست الديمقراطية البراجوازية رغم الحدود التي تحصرها فيها الرأسمالية "شكلية" بل هي حقيقية تماماً حتى لو ظلت غير مكتملة. ستكون الاشتراكية ديمقراطية أو لن تكون. غير أنني أضيف إلى هذه الجملة متمماً ضرورياً: لن يكون هناك تقدم ديمقراطي ما لم توضع الرأسمالية موضع مساءلة. فالديموقراطية والتقدم الاجتماعي أمران لا ينفصلان. والنماذج الاشتراكية المطبّقة على أرض الواقع في الماضي لم تحترم بالتأكيد هذا المعطى بالرغم من أنها حققت أشواطاً من التقدم دون ديمقراطية، أو بقدر من الديموقراطية أيسر مما تتيحه الرأسمالية نفسها. لكن علينا أن نضيف أن الأغلبية العظمى من المدافعين عن الديموقراطية اليوم قلما تكون متشددة، وهم يعتبرون أن الديمقراطية ممكنة دون وجود تقدم اجتماعي واضح، وذلك إذا غضضنا الطرف في هذه الحالة عن إعادة النظر في مبادئ الرأسمالية. هل يتخلى هاردت ونيغري عن هذا الصنف من الديموقراطية الليبرالية؟

تجعل الأسس الفردانية للإيديولوجيا الليبرالية من الفرد ذاتاً محددة في التاريخ في نهاية التحليل. وهذا الإثبات ليس صحيحاً، لا بالنسبة لتاريخ الأنظمة الأولى (التي كانت بحسب عصر الأنوار تجهل الفرد) ولا بالنسبة لتاريخ الرأسمالية التي هي نظام قائم على الصراع بين الطبقات، أي الذوات الحقيقية لهذه الحقبة التاريخية. غير أن الفرد بإمكانه أن يصبح ذاتاً محددة في التاريخ في إطار نظام اشتراكي متقدم في المستقبل.

يعتقد هاردت ونيغري أننا قد بلغنا هذا المنعطف التاريخي الذي لم تعد فيه الطبقات (وكذلك الأمم والشعوب) ذواتاً محددة في التاريخ. والفرد اليوم هو الذي أصبح ذاتاً (أو إنه على وشك أن يصبح كذلك). ويتيح هذا المنعطف الفرصة لتشكّل ما يسميانه "الجمهور" الذي يعرف بوصفه "مجمل الذاتيات الإنتاجية والإبداعية".

بماذا يفسّر هذا المنعطف؟ يتسم نص هاردت ونيغري بشيء من الغموض حول هذه النقطة. فهما يتحدثان عن عملية انتقال إلى "رأسمالية معرفية capitalism cognitibe" أو عن انبثاق "الإنتاج اللامادي" وعن المجتمع الجديد المتشكل "عبر شبكات" en réseau أو عن طريق "نقض الطابع الإقليمي" déterritorialisation. وهما يعودان إلى طروح proposition فوكو بخصوص الانتقال من مجتمع تأديبي إلى مجتمع مراقبة. فقد خُلط دون أدنى نظام كل ما قيل في هذه العقود الثلاث الأخيرة سواء أكان جيداً أو رديئاً بحسب وجهات النظر، وخُلطت

الطروح القابلة لجدل كبير أو الأفكار السطحية البديهية - في قِدْرٍ كبيرة حيث يُطبخ المستقبل. إن تكديس الموضات المعاصرة لا يذهب بالضرورة بالقناعة. فالتماثل مع أطروحات مانويل كاستيلس Manuel Castells بخصوص "مجتمع الشبكات" ومع الأفكار التي يْروّجها جريمي ريفكين Jeremy Rifkin وروبيرب رايش R.B. Reich وآخرون من أمريكا (الشمالية) - قد بلغ الحدّ الذي يمكن عنده التساؤل - بصورة مشروعة - عن الجديد وعن المهم في هذا الفيض من الأفكار؟

سأقترح إذن فرضية أخرى لتفسير التعبير المستحدث "الجمهور" المعنيّ بالبحث. إننا نعيش الآن هزيمة الحركات السياسية والاجتماعية القوية التي صنعت صورة القرن العشرين (الحركات العمالية والاشتراكية وحركات التحرر الوطني) وانسداد الأفق نتيجة الهزيمة يؤدي إلى لانظام سريع الزوال، وإلى كثرة الطروح النظرية - الموازية التي تسوّغ هذا اللانظام، وتدعم الاعتقاد بأن هذا الأخير يمثل وسيلة "حقيقية" ل"تغيير العالم" (ولو كان ذلك ضمنياً بصورة لا إرادية)، بالمعنى السليم للعبارة مع ذلك. ولا يمكن تقديم صياغات جديدة متماسكة وفعّالة إلا باتخاذ مسافة بالنسبة إلى الماضي بدلاً من اقتراح "أسلوب جديد" remake، وبالإدماج الفعلي للحقائق النابعة من التطور الاجتماعي في جميع أبعاده. مثل هذه المساهمات المتنوعة والمطروحة للجدل متوفرة بالتأكيد. غير أن خطاب هاردت ونيغري لا يمثل جزءاً منها.

إن الطروح التي يستمدها هاردت ونيغري من خطابهما حول "الجمهور" - بوضع صياغتها لهذا الخطاب في الاعتبار - تكشف عن المأزق الذي تردّيا فيه. يتعلق الطرح الأول بنوع من الديمقراطية توشك بصورة افتراضية للمرة الأولى في التاريخ أن تكون حقيقة على نطاق شامل. بل أكثر من ذلك، يُعرف الجمهور بوصفه القوة "المشكّلة" للديمقراطية. وهذا طرح بالغ السذاجة. ثم هل إننا نسير في هذا الاتجاه؟ وبعيداً عن بعض المظاهر السطحية (بعض الانتخابات هنا وهناك) التي ترضي بطبيعة الحال السلطات الليبرالية (واشنطن بالخصوص) فإن الديموقراطية - الضرورية والممكنة - في أزمة، وهي مهدّدة بفقدان شرعيتها لصالح الأصوليات الأثنية والدينية (لا أعتبر الأنظمة الأثنوقراطية في يوغوسلافيا السابقة مثالاً يدل على تقدّم الديمقراطية!). فهل أن الانتخابات التي وضعت حداً لسلطة عصابة من المجرمين (في خدمة الاستبدادية الروسية مثلاً) لاستبدالها بعصابة أخرى (مموّلة من قبل السي أي أيه!) تشكل تقدماً للديموقراطية أم هي مسرحية مدبّرة؟ ألا يشكّل تطور المشروع الامبريالي لأجل مراقبة الكوكب السبب الكامن وراء الهجومات المباشر على الحقوق الديمقراطية الأساسية في الولايات المتحدة؟ ثم ألا يجد الإجماع الليبرالي الأوروبي الذي يضم أغلبية قوى اليمين واليسار نفسه داخل سيرورة تجرده من مشروعية الإجراءات الانتخابية؟ إن هاردت ونيغري يصمتان حول هذه المسائل.

يتعلق الطرح الثاني بـ "تنوع الجمهور". غير أن الأشكال والمضامين التي تحدد المكوّنات المتنوعة للجمهور قلما تكون مخصّصة بالقدر الذي يفوق أهمية القوى التي تزيد من هذا التنوع أو تحد منه. هناك تناقضات كبرى تشق بالتالي نص هاردت ونيغري بأكمله. فمن المفروض على سبيل المثال أن تحدّ العولمة الراهنة في نظرهما من "الفوارق" بين المراكز والأطراف (وإلا ستظل هذه العولمة امبريالية). إن عالم الواقع يتطور في اتجاه مناقض لذلك تماماً، من خلال توسيع الفوارق وإقامة نظام للأبارتيد على نطاق عالمي. فالتنوع داخل المكوّنات المحلية للنظام التي ذكرها هاردت ونيغري (في واقع الأمر داخل مجتمعات أمريكا الشالية وأوروبا فحسب) هو نفسه ذو طبيعة "مختلفة": إذ توجد (مثلما هو الشأن أحياناً في الولايات المتحدة الأمريكية) "جماعات" أثنية أو أثنية - موازية ومناطق لغوية أو دينية متنوعة وربما طبقات أيضاً (!) قد يكون من الأفضل إعادة تحديدها على قاعدة تغيّر الحقائق الاجتماعية! وبمجرد أن يتم الكشف عن كل هذا التنوع، نادراً ما يُضاف شيء يذكر. فكيف تتموقع (هذه الجماعات) في الإنتاج وإعادة الإنتاج وتغيير الأنظمة الاجتماعية؟ تتعذر الإجابة عن هذه الأسئلة الأساسية دون مفهمة conceptualisation ما أسميه بـ"الثقافات السياسية". وهي بالتأكيد أسئلة مطروحة للسجال لكن لا يمكن تجاهلها. إن هاردت ونيغري لم يأتيا بأي شيء من شأنه أن يدعّم أطروحتهما.

إن المنعطف الذي يثبت حقيقة أن الفرد ذات محدّدة في التاريخ، وأن الجمهور قوة مكوّنة لمشروعه الديموقراطي، اختراع "مثالي النزعة". فهو يفترض حصول انقلاب في عالم الأفكار دون تغيّر العلاقات الاجتماعية في الواقع. وإنني لا أشير هنا إلى أن الأفكار مجرد انعكاس سلبي للواقع دائماً. وقد دافعت عن وجهة النظر المخالفة القائمة على الاعتراف باستقلالية "المجالات" instances. إذ يمكن للأفكار أن تسبق زمنها. ولا تخص هذه النقطة هنا هذا الطرح العام، بل تخص الأفكار المابعد - حداثية بالنسبة إلى الموضة الرائجة اليوم (مع إدراج أفكار هاردت ونيغري كذلك): هل أن هذه الأفكار متقدمة على زمنها؟ أم أنها ليست سوى التعبير الساذج والمشوش والمتناقض عن الواقع الراهن، في فترة هزيمة لم يتم تجاوزها بعد؟ ضمن هذه الشروط يمكن أن يصبح "الجمهور" واقعاً يكوّن "الحقائق المتنوعة" المتباينة والمتعددة وغير الحاسمة. ويمكن أن يبدو كأنه يتصرف بوصفه "قوة حقيقية" (أغلبية انتخابية قوية على سبيل المثال). لكن هذا الأمر سريع الزوال ومن شأنه أن يفتح الطريق لبنية مفصلية متناقضة مثلما هو الشأن دائماً عبر التاريخ. ومن المرجح بعد بضعة سنين أن تكون صفحة "الجمهور" قد طويت، مثلما تم ذلك بالنسبة للنظام العالمي[62] في السبعينات، ولنفس السبب: أي التركيز على الجزئي والزائل، مثلما يلاحظ ذلك أتيليو

[62] Ouvriérisme نظام عمالي تقود الحركات العمالية بموجبه الحركة النقابية والتنظيم الاشتراكي للاقتصاد. (المترجم)

بورون Atilio Boron في كتابه: "Empire and Imperialism" (Zed Book, 2005)

إن الثقافة السياسية الكامنة وراء خطاب هاردت ونيغري هي ثقافة الليبرالية الأمريكية (الشمالية). وتعتبر هذه الثقافة السياسية الثورة الأمريكية (الشمالية) وبالتالي الدستور، حدثاً حاسماً في تدشين الحداثة. تقول حنّه أرندت، وهي مصدر إلهام بالنسبة لهاردت ونيغري، إن هذه الثورة تفتح عهد "البحث اللانهائي عن الحرية السياسية". واليوم فإن انبثاق الجمهور أي القوة المشكّلة للديموقراطية "الممكنة للمرة الأولى على المستوى العالمي" يتوج الانتصار (الإيجابي) ل- "أمركة العالم".

إن الانضمام إلى الليبرالية الأمريكية (الشمالية) يصاحبه بالضرورة احتقار للمسالك المختلفة التي تتخذها بلدان أخرى وخاصة "أوروبا العجوز". لذلك قابلت حنة أرندت بين الثورة الأمريكية (الشمالية) و"المعركة المحدودة ضد الفقر واللاتكافؤ" وهو أمر تقتصر عليه في رأيها الثورة الفرنسية. لقد تم خلال الحرب الباردة تشويه صورة كل الثورات الكبرى في الأزمنة الحديثة (الثورة الفرنسية والثورة الروسية والثورة الصينية). كما تم الحط من شأنها منذ ولادتها بسبب "نزعتها التحكمية"، بحسب الخطاب الليبرالي الأمريكي (الشمالي) الذي أصبح عنصراً فعالاً بالنسبة للثورة المضادة بعد الحرب العالمية الثانية. إن الرواسب التي ينفرد بها "النموذج الأمريكي" الذي لم تُعِدْ ثورته الرائدة ودستوره النظر في أي ضرورة من ضرورات التطور

الرأسمالي - اقتضت استبعاد موروث الثورات التي أعادت النظر في متطلبات الرأسمالية (مثلما هو الشأن مع تجذّر اليعقوبيين في الثورة الفرنسية). ويمثل التنديد بالثورة الفرنسية (نشير إلى فرانسوا فوريه F. Furet) والنزعة السوفييتية - المضادة العادية والاتهامات الموجهة ضد الماوية سمات غالبة لهذه الثورة - المضادة في الثقافة السياسية.

يلتزم هاردت ونيغري الصمت على نحو لافت للنظر بخصوص هذه المسائل، كما يتجاهلان بشكل واضح كل الأدبيات النقدية (النابعة في معظمها - مع ذلك - من الولايات المتحدة) الخاصة بالثورة الأمريكية (الشمالية) التي بيّنت منذ عهد طويل أن دستور الولايات المتحدة قد صيغ بشكل مبرمج لإزاحة كل خطر للانحراف "الشعبي". والنجاح من هذه الزاوية حقيقي ومثير لحسد كل الرجعيين الأوروبيين الذين لم يوفقوا أبداً إلى إنجاز عمل مماثل (صرّح جيسكار ديستان أن المشروع الأوروبي لإنشاء دستور فائق - الليبرالية كان في "مستوى جيّد" يماثل مستوى دستور الولايات المتحدة!).

تقتصر "طموحات"الجمهور القائم بوصفه قوة منشئة للمستقبل على بضعة مسائل، وهي الحرية وحرية الهجرة خاصة، والحق في الحصول على دخل اجتماعي مضمون. ونظراً إلى حرصه على عدم المجازفة خارج ما تسمح به الليبرالية الأمريكية (الشمالية)، فإن المشروع يتجاهل عمداً كل ما يمكن أن يوصف بأنه يدخل في نطاق تراث الحركة العمالية والحركة الاشتراكية

وخصوصاً المساواة التي ترفضها الثقافة السياسية للولايات المتحدة. ومن الصعب الاعتقاد بالقدرة على تغيير مواطنية citoyenneté شاملة جديدة و(أوروبية) في طور البروز بينما تجرد السياسات المتوخّاة بشكل أساسي المواطنية من كل فعالية.

إن صياغة بديل حقيقي للنظام الليبرالي المعولم المعاصر تخضع لشروط أخرى تتمثل بالخصوص في الاعتراف بالتنوع الكبير في احتياجات وطموحات الطبقات الشعبية في كل مكان من العالم. فمن الصعب جداً في الواقع أن يتخيل هاردت ونيغري مجتمعات الأطراف (85 في المائة من مجموع البشرية). والسجالات الدائرة حول تكتيكات واستراتيجيات صياغة بديل ديموقراطي وتقدمي قد يكون فعّالاً ضمن الشروط الواقعية والخاصة المتعلقة بمختلف البلدان والمناطق في العالم، لا يبدو أنها تثير اهتمامهما. هل "الديمقراطية" التي يحث عليها تدخّل الولايات المتحدة تسمح بالكشف عما تخفيه التمثيلية الانتخابية مثلما هو الحال في أوكرانيا على سبيل المثال؟ هل يمكن اختزال حقوق "الفقراء" الذين يعمرّون الكوكب في حق "الهجرة" نحو الغرب الموسر؟ من الجائز أن يكون الدخل المضمون مطلباً مبرراً، لكن هل من الممكن أن يعتقد المرء بسذاجة أن الاعتماد عليه سيقضي على العلاقة الرأسمالية التي تسمح لرأس المال باستخدام العمل (أي بالاستغلال والقمع في النهاية) لفائدة العامل الذي سيكون إذن بوسعه استخدام رأس المال بحرية، كما سيكون بالتالي قادراً على تطوير طاقته الإبداعية بأكملها؟

إن اختزال الذات المحدّدة للتاريخ في (الفرد) وتجميع هؤلاء الأفراد في (الجمهور) يعود مردّه إلى إزاحة المسائل الحقيقية المتعلقة بإعادة بناء الذوات المحدّدة للتاريخ، وهو تحدّ يواجهه زمننا. ويمكن الإشارة إلى العديد من المساهمات المهمة التي تتعارض مع سكوت هاردت ونيغري بهذا الشأن. فقد كان دون أدنى شك للأنظمة الشيوعية والاشتراكية التاريخية ميل لاختزال الذات الأهم في التاريخ الحديث في "الطبقة العاملة"، بل على هذا الأمر بالذات يمكن أن يؤاخذ نيغري بشأن النظام العمالي ouvriérisme. وعلى العكس من ذلك، اقترحت تحليلاً للذات في التاريخ بصفتها مكوّنة من كتل اجتماعية قادرة عبر مراحل متتالية من الصراع الشعبي على تغيير موازين القوى الاجتماعية بصورة فعلية لفائدة الطبقات والشعوب المسيطر عليها.

إن مواجهة التحدي في الوقت الراهن تعني التقدم في اتجاه تنظيم الكتل الديموقراطية والشعبية والوطنية المهيمنة والقادرة على قلب سلطات الكتل الامبريالية المهيمنة والبرجوازيات الكمبرادورية المسيطرة. وتتكون مثل هذه الكتل داخل الشروط الواقعية التي تختلف من بلد إلى آخر، بحيث ينعدم وجود نموذج عام سديد (وجيه) (من قبيل "الجمهور" أو أي نموذج آخر). ومن هذا المنظور سيكون تنسيق الخطوات الديموقراطية والتقدم الاجتماعي مكوّناً من مكوّنات التحول البطيء إلى الاشتراكية العالمية، مثلما سيتيح إثبات استقلال الشعوب والأمم والدول إمكانية انبثاق عولمة خاضعة للتفاوض، ستحل محل العولمة

الأحادية الجانب التي يفرضها رأس المال المسيطر (وهو أمر تبتهج له "الإمبراطورية") وستفكك شيئاً فشيئاً النظام الامبريالي الراهن. إن السجالات المعمقة حول هذه المسائل واعدة دون أدنى شك أكثر بكثير من اختبار ما قد يكون عليه "الجمهور".

هل الثقافة السياسية في "الامبراطورية والجمهور" تناسب مستوى هذا التحدي؟

تتعلق الموضة الرائجة اليوم بـ "النزعة الثقافية" culturalisme وهي نظرة للتعددية البشرية قائمة على ما يعدّ ثوابت ثقافية دينية وإثنية على وجه الخصوص، وينجم عن هذه النظرة للتاريخ تطور "النزعة الجماعاتية" communautarisme والدعوة إلى التعرف على "التعددية الثقافية" multiculturalisme. وهذه النظرة لا تنتسب إلى تقاليد المادية التاريخية التي تسعى إلى البحث عن تمفصل الصراعات الطبقية في الأزمنة الحديثة - مع أشكال وشروط مشاركة الشعوب الخاضعة لنظام العولمة الرأسمالية. وتتيح التحليلات المقدّمة في إطار هذه التساؤلات إمكانية فهم مسالك متنوعة، اتبعها مختلف البلدان، والتعرف على خصوصية التناقضات الموجودة داخل المجتمعات المعنية بالأمر وعلى مستوى النظام الشامل. إن هذه التحليلات تتمحور بالتالي حول ما أسميه بتشكّل الثقافات السياسية للشعوب في العالم الحديث.

سأطرح السؤال التالي: على أي ثقافة سياسية ترتكز كتابات هاردت ونيغري؟ هل تنتسب إلى تقاليد المادية التاريخية أم إلى

النزعة الثقافية؟ إنني أقترح في كتابي "الفيروس الليبرالي"[63] The Liberal virus تحليل المسارين، المسار "الأوروبي" من جهة والمسار الأمريكي (الشمالي) من جهة أخرى، واللذين يصنعان الثقافات السياسية للشعوب المعنية بالموضوع. وسأذكّر هنا باختصار بالخطوط العريضة لمجموعة الأدلّة التي قدّمتها.

إن صورة الثقافة السياسية في القارة الأوروبية نتاج للفترات الكبرى التي صنعتها: مثل الأنوار وانبعاث الحداثة والثورة الفرنسية وتطور الحركة العمالية والحركة الاشتراكية وبروز الماركسية والثورة الروسية. هذه السلسلة من الخطوات لم تضمن بالتأكيد حقيقة أن تضطلع الأنظمة اليسارية المتعاقبة التي أنتجتها هذه الفترات التاريخية بالإدارة السياسية للمجتمعات الأوروبية. لكن هذه السلسلة صنعت تعارض اليمين مع اليسار على أرض القارة. وقد فرضت الثورة - المضادة المنتصرة إصلاحات (بعد الثورة الفرنسية والثورة الروسية) وتراجعاً للعلمانية وحلولاً وسطية مع الأرستوقراطيات والكنائس وإعادة نظر في الديموقراطية الليبرالية. كما وفقت الثورة - المضادة إلى كسب مساندة الشعوب الخاضعة للمشاريع الإمبريالية لرأس المال المسيطر، ولأجل هذه الغاية عبأ اليمين المنتصر الأيديولوجيات الشوفينية ذات النزعة القومية التي بلغت أوجها العام 1914 على وجه الدقة.

---

63 سمير أمين، الفيروس الليبرالي، الحرب الدائمة وأمركة العالم، ترجمة سعد الطويل، دار الفارابي، لبنان، ط1 - 2004.

إن في تعاقب الفترات المكوّنة للثقافة السياسية شيئاً من الاختلاف. فهذه الفترات هي على التوالي فترة قيام الطوائف البروتستانتية المضادة للأنوار في انكلترا - الجديدة، ثم فترة مراقبة الثورة الأمريكية (الشمالية) عن طريق البرجوازية الكولونيالية وخصوصاً عن طريق الجناح المناصر للرّقيّة fraction esclavagister، وفي الفترة الثالثة تم تحالف الشعب مع هذه البرجوازية القائمة على توسيع الحدود، ما أدّى بالتالي إلى إبادة الهنود، وأخيراً تعاقب موجات المهاجرين التي أعاقت نضج وعي سياسي اشتراكي من خلال استبداله ب- "النزعة الجماعاتية". لقد كان تعاقب الأحداث يعبّر بعمق عن السيطرة الدائمة لليمين، ما جعل من الولايات المتحدة البلاد "الأضمن أكثر من سواها" لتطور الرأسمالية.

تدور اليوم معركة هي من أكبر المعارك التي ستحدد مصير البشرية حول "أمركة" أوروبا. إن الهدف هو تدمير الثقافة الأوروبية وإرثها السياسي واستبدالهما بالثقافة المسيطرة للولايات المتحدة. والخيار الفائق الرجعية هو خيار القوى السياسية المسيطرة في أوروبا اليوم، ويظهر هذا الخيار بجلاء من خلال مشروع الدستور الأوروبي. وهناك معركة أخرى هي تلك التي تدور بين (بلدان) "الشمال" أي بلدان رأس المال المسيطر و(بلدان) "الجنوب" حيث 85% من الإنسانية ضحايا لمشاريع الامبريالية للثالوث. ويتجاهل هاردت ونيغري رهانات هاتين المعركتين الحاسمتين.

إن المديح غير المبرر الذي أسبغناه على "الديموقراطية" الأمريكية (الشمالية) يتعارض بشدة مع الكتابات والتحليلات النقدية الخاصة بالمجتمع الأمريكي - الشمالي المرفوضة جملة وتفصيلاً، لأن "مناهضتها للنزعة الأمريكية" تجردها من الأحقية (لكن في نظر من؟ هل في نظر الاستبليشمنت (أجهزة النظام القائم؟). لن أذكر سوى كتاب أنتول ليفين Anatol lieven, "America Right or Wrong: An Anatomy of American Nationalism" (Oxford University Press, 2004)

وقد توصل فيه إلى استنتاجات تتوافق إلى حدّ بعيد مع استنتاجاتي بالرغم من اختلاف نقاط انطلاقنا على المستويين الإيديولوجي والعلمي. فليفين يربط التقاليد الديموقراطية الأمريكية (الشمالية) (التي لن يستطيع أحد نكران حقيقتها) بالأصول الظلامية للبلاد (والتي تواصلت وأعيد إنتاجها عن طريق موجات المهاجرين المتعاقبة). إن مجتمع الولايات المتحدة من هذه الزاوية يشبه الباكستان أكثر مما يشبه انكلترا. كما أن الثقافة في الولايات المتحدة هي نتيجة غزو عالم الغرب (مما أدى إلى اعتبار كل الشعوب الأخرى "هنوداً حمراً" لاحق لها في الحياة إلا بقدر ما يناسب ذلك الولايات المتحدة). إن المشروع الامبريالي الجديد للطبقة الممسكة بالسلطة في الولايات المتحدة تحتاج إلى شحنة قومية جديدة عنيفة، تشكل بالتالي الإيديولوجيا المسيطرة وتذكّر بأوروبا في عام 1914 أكثر مما تذكّر بأوروبا في الوقت الراهن. ومن جميع الوجوه، لا "تتقدم" الولايات المتحدة

"أوروبا العجوز" بل هي متأخرة لمدة قرن. لذلك يفضّل اليمين "النموذج الأمريكي" كما تفضّله للأسف بعض الأطراف في اليسار مثل هاردت ونيغري اللذين كسبتهما الليبرالية الراهنة.

وبغض النظر عن هاتين الأطروحتين: أطروحة الامبراطورية ("الامبريالية فكرة قديمة جداً") وأطروحة الجمهور (الفرد أصبح ذاتاً محددة في التاريخ)، فإن هاردت ونيغري يتحدثان بلهجة استسلامية. فلا وجود لبديل(There is no alternative) إزاء الخضوع لمتطلبات المرحلة الراهنة للتطور الرأسمالي. وسيتم الاقتصار على إمكانية مقاومة نتائجه المؤسفة بالاندماج فيه. إنه خطاب حقبتنا، حقبة الهزيمة، وهي فترة لم يتم بعد تجاوزها. وهو خطاب الديموقراطية - الاجتماعية الذي كسبته النظرية الأطلسية. وما تستلزمه نهضة جديدة ليسار يستحق هذا الاسم وقادر على أن يحثّ على تقدم الشعوب، هو قطيعة جذرية مع خطاب من هذا النوع.

Monthy Review, nov. 2005 (en anglais)

http:// www.Monthlyreview.org/1105amin.htm

traduction de numancia Poggi.

الحركات المناصرة للعولمة البديلة

والنضالات الشعبية

من بين تشكيلات التيار المناصر للعولمة البديلة تتحدر بشكل أساسي التشكيلة الممثلة أفضل من سواها في المنتديات الاجتماعية من الطبقات الوسطى في المراكز الموسرة. لذلك يبقى لها أن ترسّخ نفسها في الأوساط الشعبية على اعتبار إدراكها بأنها مكبح لنضالات الجنوب خاصة...

لا تمتلك العولمة بشكلها الراهن الشيء الكثير لتقدمه للأغلبية العظمى من شعوب الجنوب بما أنها مربحة بالنسبة لأقلية من الناس فهي تقتضي بالمقابل إفقار الآخرين، وبخاصة طبقات المزارعين التي تضمّ ما يناهز نصف البشرية. ويؤدي منطق الكسب - على مستوى شامل - إلى تدمير تدريجي للأسس الطبيعية لتجدد الحياة على كوكب الأرض. ومع خصخصة الخدمات العمومية سيحدّ هذا المنطق كذلك من الحقوق الاجتماعية للطبقات الشعبية. وبالنظر إلى هذا الواقع ينبغي أن

تعدّ الرأسمالية التي تعبّر عنها العولمة المعاصرة نظاماً قد عفا عليه الزمن.

غير أن معظم الحركات التي تقاوم نتائج هذه الرأسمالية تتخلى شيئاً فشيئاً عن إعادة وضع مبادئها الأساسية موضع سؤال، مما يحتجز قدرة هذه الحركات على تقديم حلول تخييرية هي ضرورية وممكنة مع ذلك. ويكون على هذه الأخيرة أن تسعى إلى الجمع - وليس إلى الفصل - بين دقرطة إدارة كل جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والبيئوية والأسرية - ومستويات التقدم التي يتمتع بها كل المواطنين بدءاً بالمعدمين قبل غيرهم. كما ينبغي لمثل هذه الحلول التعويضية أن تنطوي كذلك على احترام سيادة الدول والأمم والشعوب وبناء نظام أممي متعدّد المراكز من أجل أن يحلّ واجب التفاوض محل علاقات القوّة.

من هذا المنظور يستلزم الأمر خلق مؤسسات أممية أخرى تختلف عن هذه المؤسسات القائمة الآن والتي غالباً ما تقتصر على خدمة رأس المال المالي، وهي المنظمة العالمية للتجارة (OMC) وصندوق النقد الدولي (FMI) والبنك العالمي ومنظمة حلف شمال الأطلسي (OTAN) بل وحتى الاتحاد الأوروبي (UE) بحسب أدائه الآن، بصرف النظر عن المشاريع الإقليمية مثل منطقة التبادل الحرّ ضمن القارة الأمريكية ZLEA, ALCA باللغة الإسبانية والاتفاقات التي عقدت بين الاتحاد الأوروبي وبلدان أفريقيا والكرايبب والمحيط الهادي (ACP).

لا معنى لإعادة النظر هذه إلا إذا استهدفت كذلك طموح الولايات المتحدة التي يدعمها حلفاؤها لممارسة هيمنتها على

كوكب الأرض بأكمله. ويبدو الشرق الأوسط في هذا الصدد كأنه منطقة "الضربة الأولى" وذلك لأربعة أسباب:

- فهو يحوي الموارد البترولية الأكثر غزارة، ومراقبته قد تعطي لواشنطن موقعاً ممتازاً ليكون كلّ من حلفائها (أي دول أوروبا بالإضافة إلى اليابان) ومنافسيها المفترضين (مثل الصين) على حدّ السواء في موقع غير مريح يتمثل في تبعيتها بالنسبة إلى الطاقة.

- وهو يحتل موقعاً مركزياً من العالم القديم ويسهّل تعريض الصين والهندي وروسيا للخطر العسكري.

- كما أنه يمرّ بمرحلة تتسم بالضعف والفوضى مما يجعل العدو متأكداً من انتصار سهل في الحالة الراهنة على الأقل.

- ثم إن للولايات المتحدة حليفاً مؤكداً وهو إسرائيل التي تملك السلاح النووي.

وسيُنفذ المشروع كما يلي: تُحتل فلسطين وأفغانستان، ويتم تهديد سوريا وإيران بعد تهديد لبنان، غير أن فشل مثل هذا الطموح الذي سيكون واضحاً للعيان حتى خارج العراق وأفغانستان سيكون كذلك إفلاسه ظاهراً في أمكنة أخرى: وقد أربكت مقاومة حزب الله في لبنان الجيش الإسرائيلي على الرغم من أنه متمرس بالحرب ومجهّز إلى أبعد حدّ، بالإضافة إلى الجسر الجوي الذي ينطلق من القاعدةً الأمريكية ديغو غارسيا في المحيط الهندي. فجهود الولايات المتحدة وأوروبا تهدف إذن إلى فرض نزع سلاح قوة المقاومة التي يشكلها حزب الله اللبناني حتى يتسنى لإسرائيل أن تقوم بغزو جديد في المستقبل يفضي إلى انتصار سهل.

من الواجب التخلص في هذا الإطار كذلك من الذريعة الخبيثة الموجّهة إلى إيران حصراً أي تلك الذريعة المتعلقة بمعاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية (TNP). فلا بد أن تطبّق ضرورة نزع السلاح النووي على الجميع، بدءاً بالبلدان المجهّزة بهذا السلاح أكثر من غيرها مثل الولايات المتحدة وروسيا في مقدّمة اللائحة، دون نسيان الهند والباكستان وكوريا الشمالية وإسرائيل (وهي بلدان لم توقع المعاهدة).

في هذا السياق المتفجّر وفيما ينعقد من 20 إلى 25 كانون الثاني في نيروبي (كينيا) المنتدى الاجتماعي العالمي، ليس تجذير النضالات مع ذلك، الخيار الذي تتبناه العديد من الحركات الاجتماعية. وذلك باسم ضرورة الواقعية والحرص على عدم انعزال أقصى اليسار في برجه العاجي. كما أن أقليات صغرى متجذرة توشك أن تُحمل - مرة أخرى - على أن تعتبر نفسها "طليعية" وعلى أن ترفض كلّ نقد وتغمض عينيها أمام التحولات السريعة التي تعيشها المجتمعات المعاصرة.

وبما أن الموجة التاريخية الأولى من التجارب المطبقة باسم "الاشتراكية" قد أظهرت فشلها فإن الرأسمالية تبدو للكثيرين - في غياب النقص الحاصل - أفقاً لا يمكن تجاوزه. فالحركات الشعبية غالباً ما تنقاد إذن لتحديد أهداف متواضعة لنضالاتها: مثل دفع الليبرالية الجديدة إلى الارتداد إلى الوراء بالتأكيد، لكن لمجرّد النهوض بخيارات تتماثل مع التسيير لرأسمالية ذات "وجه إنساني".

بل إن العديد من المناضلين - لا سيما في أوروبا وفي الولايات المتحدة - لا يعتقدون بأن النضالات لا يمكن أن تندرج في نظام الأمم، وهو إطار قد يكون فقد كل وجه من أوجه الصحة في رأيهم. وبما أن الأمة والدولة غير قابلتين للانفصال إلى حدّ بعيد، فهما تطوران استرتيجيان يتجاهلان عن قصد مسألة سلطة الدولة من أجل استبدالها بالمعركة داخل "المجتمع المدني" وبالتشهير بـ "سياسة الأحزاب". وهذا الموقف منتشر بصورة خاصة على أرض القارة العجوز حيث يرى كثيرون أن من أوكد أولوياتهم "إنقاذ أوروبا". كأن أوروبا أمكنها أن تكون - وإن لأمد متوسط - شيئاً آخر غير ما هي عليه.

أمام هذه التحديات، يتخذ التيار المناصر للعولمة البديلة أي مشروع بناء "عالم جديد ممكن" صيغة الجمع. فهناك من جهة حركة يمكن وصفها بـ "اللينة" وهي توحي بمواقف توجد في المجتمعات الغنية (في شكل "مذهب بيئوي" معيّن "متجذر") كما توجد في مجتمعات البلدان الفقيرة الواقعة في وضع ميئوس منه على حد السواء (وذلك باعتبار الحركات السلفية الدينية الموازية والأثنية - الموازية). ولن تستطيع - من جهة أخرى - حركة تقدمية لمناصرة العولمة البديلة من جانبها أن تتورط في مثل هذه المسالك، حتى ولو كان عليها القيام بقراءة نقدية لا غنى عنها بالنسبة إلى تجارب فصائل اليسار المعاصرة.

تتوسط الحركتين حركةٌ ثالثة لمناصرة العولمة البديلة ينتمي أتباعها إلى الطبقات الوسطى في البلدان الغنية، وهم ينتقدون نمط الحياة الذي تقترحه الرأسمالية، كما أنهم يُبدون أحياناً

شيئاً من الحنين إلى الماضي البعيد، لكن الاهتمامات الواقعية للطبقات الشعبية لا تشغلهم كثيراً، أي اهتمامات بلدهم الخاص، بل واهتمامات الجنوب، حيث غالباً ما يكون تصوّرهم "المعتدل" لمناصرة العولمة البديلة غير مفهوم. لكن يظهر أنهم ممثلّون تمثيلاً مفرطاً داخل المنتديات الاجتماعية العالمية أو الإقليمية - وهو أمر متناقض، إذ يكفيهم الحصول على الوسائل المادية بأيسر طريقة، كما يتم النظر إليهم أحياناً باعتبارهم مكابح ضدّ دعم النضالات الشعبية.

على الرغم من هذه الاختلافات التي تشكل على أية حال مصدراً من أهم مصادر الغنى بالنسبة لهذه المجموعة من التصورات لمناصرة العولمة البديلة، وإزاء الخطر الأساسي الذي تمثله إمكانية شنّ الولايات المتحدة حروباً استباقية جديدة، لابد لهذه التشكيلة من التصورات بأكملها، بدءاً بالتصور الأكثر تجذراً إلى التصور المعتدل، أن توحّد جهودها. فتلك هي الوسيلة الوحيدة من أجل بناء ذلك العالم البديل الممكن أخيراً والذي ينشده الجميع.

كل يوم يزداد أكثر فأكثر حجم الجماعات العديدة من المواطنين الذي ينزلون إلى الشوارع قصد الاحتجاج على "العالم المعولم". وتتكون هذه الحركة من حركات غالباً ما تمثل مجتمعاتها، وهي لا تمثلها أحياناً بنفس القدر. فهل توفق كلها لإيجاد السبيل؟ إن الحياة أقصر من أن يشهد شخص نهاية الظاهرة في طور الفعل، غير أن بمستطاع البشر أن يتغيّروا وهم يتغيّرون، يقول الصينيون "يشق الناس طريقهم وهم يمشون"....

سمير أمين

اقتصادي مصري ولد بالقاهرة في العام 1931 مختص ببلدان العالم الثالث. استوحى أبحاثه من الماركسية، فحثّ بلدان الجنوب (بلدان الأطراف) التابعة للبلدان المصنّعة (بلدان المركز) على قطع العلاقة مع السوق العالمية (انظر كتابيه: الامبريالية والتنمية اللامتكافئة، 1976، وفك الارتباط، 1986).

وهو الآن مدير برنامج بحوث استراتيجية (مستقبل افريقيا) دكار، السنغال.

له مؤلفات عديدة منقولة إلى العربية وصادرة عن دار الفارابي ببيروت:

- الطبقة والأمة في التاريخ والأزمة المعاصر، 1979.
- بعض قضايا للمستقبل، ت: د.فهمية شرف الدين، 1990.
- الاضطراب الكبير، ت: عصام الخفاجي، 1991.
- قضايا استراتيجية في المتوسط ت سلسلة المتوسط في السياسة الدولية، د. سمير أمين وآخرون، 1992.
- إمبراطورية الفوضى، ت: د. سناء أبو شقرا، 1996.

- نقد روح العصر، ت: د. فهمية شرف الدين، 1999.
- ما بعد الرأسمالية المتهالكة، ت: د. فهمية شرف الدين ود. سناء أبو شقرا، 2001.
- الاقتصاد السياسي للتنمية في القرنين 20 - 21، ت:د. فهمية شرف الدين، 2002.
- الفيروس الليبرالية، ت: سعد الطويل، 2004.

الفهرس

المقدمة	5
الفصل الأول: نعوم تشومسكي	9
- واشنطن فوق القانون الدولي	11
- أفضل عالم بحسب واشنطن	28
الفصل الثاني: إدوارد سعيد	41
- صدام الجهل	43
- هلاّ يسمعني أحد؟	54
- إدوارد سعيد	57
الفصل الثالث: إدغار موران	59
- هل ينحدر العالم إلى الهاوية	61
- إدغار موران	69
الفصل الرابع: يورغن هابرماس	73
- التمثال والثورويون	75
- معجم الألفاظ وفق الأبجدية الفرنسية	89
- يورغن هابرماس	90
الفصل الخامس: ريجيس دوبريه	93
- تلأملات في الشأن الديني	95
- ريجيس دوبريه	107

الفصل السادس: جان بودريار	109
- عنف العولمة	111
- جان بودريار	119
الفصل السابع: فيليب كوركوف	121
- هل يوجد فكر مناصر للعولمة البديلة؟	123
- نعوم تشومسكي أو فكر الضد	135
- أنطونيو نيغري	138
- جون هوللواي و "السلطة النقيض"	141
- ميغيل بيناصياغ ومنطق السلطة - المضادة	143
- بيير بورديو وتعددية أشكال السيطرة	145
- دانييل بنسعيد أو العودة المالنخولية للماركسية	147
الفصل الثامن: سلافوي زيزيك	149
- الشبح لا يزال يطوف	151
- مقطع من كتاب زيزيك	157
- منطق الرأسمالية يؤدي إلى تقييد الحريات	163
الفصل التاسع: سمير أمين	173
- الإمبراطورية والجمهور	175
- الحركات المناصرة للعولمة البديلة	196
- سمير أمين	202

تتألف مادة هذا الكتاب من باقة من المقالات المختارة من مصادر متنوعة، وهي تطرح قضايا راهنة وحساسة تتعلق بمستقبل العالم الذي نعيش فيه من زوايا نظر مختلفة: سياسية وثقافية وسوسيولوجية واقتصادية.

فهذا نعوم تشومسكي يبيّن أولاً كيف أن الاستخفاف بالقانون الدولي متجذر في الثقافة والممارسات الأمريكية عبر التاريخ، كما أنه يروي قصة وقوع العراق في معسكر "الدولة المارقة" بحسب واشنطن.

أما إدوار سعيد فهو يتصدّى للردّ على أطروحة هنتنغتون المروّجة للعولمة الجديدة التي ترى أن الصراع سيكون ثقافياً في الأساس، وأن تصادم الحضارات سيسيطر على السياسة العالمية وسيستفحل الصراع بين هويتين كبيرتين من بين ثماني حضارات هما الإسلام والغرب.

ويثير إدغار موران عالم الاجتماع الفرنسي مشكلة سيطرة اللاتفاهم والانتقام، بالرغم من تعدد أشكال التواصل، متحدثاً عن تعميم الحلقة المفرغة الإسرائيلية ـ الفلسطينية في العالم بأسره، والحلقة المفرغة "الغرب ـ الإسلام" وعن انتصار المانوية داخل تصادم البربريات وعمّا سُمّي بـ "تصادم الحضارات".

وينقل لنا يورغن هابرماس انطباعاته وأفكاره حول مشهد التاسع من نيسان في بغداد: "لم توجد حالة دفاع عن النفس لها علاقة بهجوم فعلي أو محتمل، ولا إجازة بقرار من مجلس الأمن طبقاً للفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة. بل إن العملية كلها تحولت إلى تهريج عندما أخذ رئيس الولايات المتحدة يكرر القول بأنه سيتحرك عند الاقتضاء دون تفويض من مجلس الأمن".

تصميم الغلاف: ناظم حمدان
لوحة الغلاف: عمار حسن

دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا ـ اللاذقية ـ ص.ب 1018 هاتف 422339

Bitterness_s